ذخائر العرب

١٤

الغصون اليانعة
في محاسن
شعراء المائة السابعة

ذخائر العرب
١٤

الغصون اليانعة
في محاسن
شعراء المائة السابعة

لابن سعيد
أبي الحسن علي بن موسى الأندلسي
٦١٠هـ — ٦٨٥هـ

بتحقيق
ابراهيم الإبياري

دار المعارف بمصر

الإهداء

إلى ابن سعيد

أهديها رحمة مسئولة من

عليٍّ قدير .

إبراهيم الإبيارى

بسم الله الرحمن الرحيم

تعريف بالكتاب

كان أول ما اتصلت بهذه المخطوطة يوم نزلتُ أستاذاً بالمعهد المصرى بمدريد ، وجلست إلى صديقى « الدكتور عبد العزيز الأهوانى » ، وكيل المعهد أوان ذاك ، نستقرئ ما حوت مكتبة « الأسكوريال » من خطيات .

وكنا أحرص ما نكون على أن نُخرج للناس فهرساً لهذه المكتبة بتنظيم ما ظهر من فهارس مطبوعة ، وما بقى من أوراق ضُروب ، يعُوزها ضم أشتاتها والتنويه بها ، نهديه إلى قراء العربية بالعربية .

كما كنا نعد العدة لجهود مفردة وأخرى مشاركة ، نفرغ فى الأولى لنشر عدد من الخطيات ، ونتعاون فى الثانية مع معاهد أسبانية ، عنيت بهذا الإرث عنايتنا ، على كثير من أعمال .

وكان هذا المخطوط « الغصون» من نصيبى غير المشارك فيه . فمضيت أقرؤه ، ثم أنسخه ، ثم أفهرس له فهرسة أولى تعين على اتساق صفحاته ، وتهدى إلى سقطاته .

وما أخذت فى تلك الخطوة الأولى حتى زدت إيماناً إلى إيمان بعوز المكتبة العربية إلى كثير من الجهد المنظَّم . بل نحن إلى ثمرة هذا الجهد الجامع المبوب أحوج منا اليوم إلى النشر . أعنى أنا بين حاجتين : إحداهما غير مفروغ لها على خطرها ، والأخرى قد شغلتنا عن غيرها .

فالمراجع العربية وفرة انتظم الكثيرَ منها فهارسُ ولكنها لم تَفِ بها. والأعلام

العربية لا ينتظمها حصر وهى مبعثرة هنا وهناك ، نهتدى إليها حيناً ونضل حيناً . والموضوعات ليست دون هذا ولا ذاك ، وما يجمعها جمع ولا يبوبها تبويب .

فهذه أمور لا يغنى عنها دارس ، وهى أول ما يفجأ الناشر . وما أظن شعور الدارس ، وإحساس الناشر ، حفزا إلى خطوة سريعة تيسر هذا كله فيعود مادة مجموعة مبسوطة ، توحى بالكثير من الأعمال التى لا زلنا إلى اليوم ننشدها أملا ونعيا عن تحقيقه .

بودى لو تآزرت الأيدى هنا وهناك ، وقسم الأمر بين الشعوب العربية ، وفرغ كل شعب لنصيبه ، ثم التقت هذه الأنصباء فى كتاب شامل ، تكون مجلداته ما تكون .

عندها يقوى الشرق على الاضطلاع بأموره العلمية الغميقة ، التى حملها عنه الغرب موفقاً . وعندها نجد مادة الدراسة مملية فى رخاء ويسر . وعندها نفرغ من الماضى — الذى عنانا بمخلفاته — إلى حاضر لازال جهدنا فيه جهد المُقل ، حتى لا نثقل عواتق الأبناء ، كما أثقل عواتقنا الآباء .

وحملتُ « الغصون » معى إلى مصر إذ كنت قد بدأت فيه ، وتقبلته « دار المعارف » مشكورة ليخرج بين « ذخائر العرب » .

وأما عن غيره من جهود ، كان المعهد سيُبلى فيها بلاء حسناً لو أعانه عليها أولو الأمر بشىء من الأناة ، فقد تلبثت تنتظر لفتة كريمة من رجل كريم ، يملك القول والأمر .

* * *

والكتاب واحد مما ترك ابن سعيد من مؤلفات سنحدثك حديثها فى بحث مستقل سيصدر عن ابن سعيد لحقاً لكتاب « اختصار القدح المعلى » ، الذى سينشره « التراث الثقافى » ، بوزارة التربية والتعليم المصرية .

وقد جعله المؤلفُ الثامنَ من كتب اشتمل عليها كتابه « جامع طبقات الشعراء » الموسوم بالحلة السيراء .

ورتب المؤلف هذا الكتاب « الغصون » كما قال فى مقدمته على ثلاثة أقسام :

الأول : فى تراجم الذين تحققت سنو وفاتهم .

الثانى : فى تراجم الذين لم يوقف منهم على ذلك .

الثالث : فيمن استقر العلم على حياته عند انتهاء هذا التصنيف . وذلك فى سنة سبع وخمسين وستمائه .

ومضى المؤلف يترجم لرجالات القسم الأول — وهم من تحققت سنو وفاتهم — سنة بعد سنة ، يتخير ويستصفى ، إذ كان هذا شرطه فى تأليفه ، فوقع على ثمان تراجم فى وفيات السنة الأولى بعد الستمائة ، وثلاث فى الثانية ، وتسع فى الثالثة ، وست فى الرابعة ، واثنتين فى الخامسة . وما كاد يمضى فى ثانيتهما حتى انقطع بنا الحديث عن غير تمام ، يشعر بذلك السياق ، والفراغ المتروك[1] (انظر ص ١٥٤) .

وقد قسمه المؤلف على أجزاء لا ندرى عدتها ، ولا نهجه معها ، فنراه يضم وفيات عامين فى جزء ، يختمه فيقول : « كمل الجزء الأول من كتاب الغصون اليانعة فى محاسن شعراء المائة السابعة . والحمد لله والصلاة على سيدنا محمد وآله . يتلوه إن شاء الله تعالى تراجم سنة ثلاث وستمائة » .

ثم يمضى يترجم لوفيات عامين ولا يقف عند نهايتهما وقفة مجزئ ، وتراجمهما تزيد على سابقيهما بأربع ، إن كان مردّ الأمر إلى الكمّ ، ويصل الحديث بوفيات السنة الخامسة ، وما نملك من الكتاب بعدها شيئاً فنعلم أين انتهى الجزء الثانى ، وبأى بدأ الجزء الثالث ، وإلى كم كانت الأجزاء .

وتنضاف إلى المخطوطة ورقة تحمل أسطراً فى أعلاها بقلم يبدو مغايراً لقلمها ، هذه كلماتها : « كتب فى التاسع والعشرين لجمادى الآخرة عام خمسة وثمانين وستمائة . وأسأل الله خير ما يقضى به » . وهى السنة التى مات فيها ابن سعيد ،

---

(١) انظر الصفحة المصورة (لوحة رقم ١)

كما ذكر المقرى فى نفح الطيب ، قال : « ووفاته بتونس فى حدود خمسة وثمانين وستمائة » .

وإنا لا ندرى أكانت هذه الورقة أخيرة لمخطوطة كاملة ، ضاع ما بينها وبين آخر الكتاب ، وبقيت هى لتدل على أن المخطوطة موصولة العهد بالمؤلف ، كتبت ولما يجف تراب قبره .

أو أنها انضمت على فكرة هيأ لها المؤلف ولم يسعفه الزمن بتمامها فترك ما ترك ، وكتب الكاتب ما وجد ، وخلف هذه الورقة يؤرخ بها للزمن الذى كتبت فيه .

ولو أن هذه الكلمات الأخيرة للكاتب جاءت بعقب الكلمات الأخيرة من المخطوطة ، غير منفصلة عنها فى ورقة مستقلة ، لكادت ترجح ثانى الظنين . فالتاريخ قريب ، والوقوف عند هذه النهاية المبتورة دون فصل إقرار بنقصها ، والسكوت عنه والعهد لم يبعد ليس مما يوقف عنده .

وتكاد عبارة المؤلف فى مقدمته عند تقسيم الكتاب الثالث : « فيمن استقر العلم على حياته عند انتهاء هذا التصنيف ، وذلك فى سنة سبع وخمسين وستمائة » تملى السنة التى بدأ فيها مؤلفه « الغصون » .

فهو لا شك لم يبدأ كتابه قبل هذا العام ، كما لم يبدأه بعده ، وإلا لانتهى به إليه . إلا إذا انطوى الأمر على علة لم نوفق إليها بعدُ .

وكان ابن سعيد عندها فى تونس ، يحظى بخدمة المستنصر الأول محمد بن يحيى الحفصى[1] . فقد آب إلى تونس سنة ٦٥٢ ، ونزل على صديقه أبى العباس التيفاشى . وبقى فى تونس إلى سنة ٦٦٦ . ثم عاد إلى المشرق فأوغل .

فقد ملكها ابن سعيد سنين تسعاً ، تزيد أو تنقص قليلا ، فى حياة قارة ، وحظوة سارة ، وهو الذى أنى حل واستقر امتشق قلمه يصول به ويجول فى ميدان الشعر وبين الشعراء ، يصفهم مرة آحاداً ، وينسقهم مرة جماعات ، كفعله فى « الرايات »

---

(١) حكم تونس بعد وفاة أبيه سنة ٦٤٧ هـ وكانت وفاته سنة ٦٧٥ .

و « عنوان المرقصات والمطربات » ، و « ملوك الشعر » الذى جمعه للملك الناصر . ثم هو فى بلاط ملك ، ووسيلته إلى الملوك أدبه ، ومظهر ذلك ما يؤلف ، ليهديه قربى وزلفى ، كما أهدى الرايات لابن يغمور ، وملوك الشعر للناصر ، ففعل ، وكأنه أراد المستنصر بقوله فى مقدمة هذا الكتاب :

لسنا نسميك إجلالا وتكرمة ومن يصفك فقد سماك للعرب

هذا عن آخر المخطوطة وما أوحى به . وأما عن أولها ، فقد جمعت الصفحة الأولى إلى جانب العنوان عبارتين للتمليك بقلمين مختلفين ، إحداهما فى أعلى الصفحة فوق العنوان ، وهى : « لمحمد بن عبد الرحمن بن الحكم » والثانية دونه بقلم دقيق ، وهى : « الحمد لله . تملك هذا الكتاب عبد الله المعتمد عليه المفوض أموره إليه أمير المؤمنين زيدان . . . مراكش الفهرى . . . . أصلح الله أحواله » .

هذا فى صفحة العنوان ، وفى صفحة أخرى كتب بقلم مغاير : « ملك للفقيه محمد بن خليص » . ومع هذه العبارة عبارة لاتينية تترجم عنوان الكتاب[1] .

والمخطوطة وإن حملت اسمها فلم تحمل اسم مؤلفها ، وهذا ما حمى له الباحثون من قبل يحدسون .

فقد ذكرها غزيرى (Casiri) فى فهرسه لمخطوطات الأسكوريال ، وذكر أنها تتألف من عشرة أجزاء ، دون أن يعطى الدليل على ما يقول .

(ويخطو بونس بويجس Pons Boigues) فى كتابه :

(Historiadores y geografos aràbigos-españoles. pag.346) فينسب الكتاب إلى ابن الخطيب ، دون برهان .

ثم يقفو على إثرهما الأستاذ « ليفى بروفنسال (Lévi Provensal) فى فهرسه (Les Manuscrits Arabes de l'Escurial) فيقولى إن الكتاب لابن الأبار ويأخذ بقوله « بروكلمان » .

ولعل عذر الأستاذ « بروفنسال » فيما ذهب إليه كلمة « الحلة السيراء » ،

(١) انظر الصفحة المصورة (لوحة رقم ٢)

فهذا كتاب مقرون بابن الأبار معروف له . يضم تراجم ولاة أسبانيا وإفريقية الشمالية وأمرائها ممن قرضوا الشعر ، قد قسم على القرون ، وكأن كل قرن كتاب . ثم ذيله ابن الأبار بتراجم الذين عرفوا بقرض الشعر ولم يعثر على شعر لهم .

وقد ترجم لبعض من ترجم لهم « الغصون » ، من ذلك حديثه عن « أبى الربيع سليمان بن عبدالله » (ص ١٧٣) من الصفحات المصورة منه . نقلناه لك لترى نهجاً ونهجاً ، وأسلوباً وأسلوباً ، ولتنتهى معنا إلى الدليل الأول بأن الكتاب — أعنى الغصون — ليس لابن الأبار[1] ، وليس من حلة السيراء ، بل من حلة أخرى .

وبعد هذا فالمؤلف صاحب رحلة إلى مصر ، فيقول وهو يترجم للتلمسانى (ص ٣٤) : « وكان ابنه مثله فى حفظ الأدب والتخصص ، وولى قضاء المرية والكتابة . . .

حضرت عنده فى القاهرة مع جماعة من الأدباء » .

ويقول وهو يترجم للماكسينى (ص ٨٥) : « وولعت بحفظ هذين البيتين واحتجت مرة إلى طلب الإذن على فخر الدين ابن الشيخ نائب السلطنة بالديار المصرية ، فكتبت إليه » .

ويقول وهو يترجم لأبى الفضل الاسكندرانى (ص ٨٩) : « ووجدت الأسعد بن يعرب شيخ علماء الاسكندرية مليئاً بأخباره » .

وورد حلب واتصل بأدبائها ، اسمع إليه يقول فى ترجمة « ابن نوفل » (ص ٨٧) : « وأنشدنى له بعض أدباء حلب » .

كما سافر إلى بغداد ، يدلك على ذلك قوله فى ترجمة البغيديدى (ص ١١١) : « وأول ما عرفت من أمره أنى أول ما سافرت إلى بغداد بت ليلة على شاطئ دجلة فى بستان » .

فمؤلف هذا الكتاب قد ورد المشرق وطاف به . وعلمنا عن ابن الأبار أنه لم يجاوز تونس . وكان تردداه بينها وبين الأندلس . وصاحب هذه الرحلة الواسعة هو ابن سعيد .

---

(١) انظر الصفحة المصورة (لوحة رقم ٣)

وثم دليل ثالث، فالمؤلف هنا —وليس إلا ابن سعيد— يأخذ عن شيخه أبى العباس النيار الإشبيلى، فيقول (ص٦٩) فى ترجمة أبى الحسن هذيل : « وكان أبو العباس النيار الإشبيلى من أحفظ الناس بأخباره وأشعاره ونوادره. أخبرنى أنه وصل إليه طالب فتخلف . . . إلخ » .

وهو يروى عنه فى المغرب ويأخذ، فيمن يروى عنهم ويأخذ .

وبعد هذه الأدلة الثلاثة ، فهو يروى عن والده فيقول (ص ٣٣) : « قال والدي » ويقول (ص ٤٠) : « وفيما كتبه والدى من أخباره » . كما ينقل عن معجم لهذا الوالد ، فيقول فى ترجمة الكورانى (ص٩٨) : « ووقفت على ترجمته فى تاريخ ابن عمر . . . . ومعجم والدى » .

ويقول فى ترجمة أبى حفص : « وقفت على ترجمته فى معجم الشقندى ومعجم والدى » .

وما نعلم فى تلك الحقبة بيتَ علم له هذه الصفة ، يروى ابن عن والده إلا هذا البيت السعيدى، ثم هذا الابن عن أبيه .

ونهج الكتاب فى تعريقه شيء يكاد ابن سعيد أبو الحسن علىّ مما اختص به وعرف له . هذا إلى خط المخطوطة الذى يكاد يدل على صاحبها .

ولكن بقى شيء لم نتم الحديث عنه، وذكرنا منه طرفاً وتركنا طرفا. فقد ذكرنا أن «الحلة السيراء» لابن الأبار، وأن هذا مما أمال الأستاذ «ليڤى» هذا المُمال وادعى الكتاب « الغصون » لابن الأبار . وتلك حجة لا تزال قائمة على أن هذا المؤلف — وهو جزء ثامن من الحلة —لابن الأبار. وإن خالفت العبارة فى التراجم المشتركة، ما لم يقم الدليل على أن ثمة كتاباً لابن سعيد بهذا الاسم ، أعنى الحلة السيراء .

وقد كان هذا آخر المطاف وخاتمة الحجج حين اهتدى الأستاذ « ملتشور أنطونيو[1] » Melchor Antuno عرضاً —كما يقول— إلى خبر ورد فى رحلة ابن رشيد (٦٥٧ — ٧١٩) فى الورقة (١٠١ من مخطوطة الأسكوريال ١٧٣٧) وفيه

---

(١) Boletin de la Real Academia de la Historia. Tom. LXXXVI-cuaderno II Abril-Junio 1925, P. 639-648.

يشكر ابن رشيد صديقه ابن همشك لتعريفه بمؤلفات ابن سعيد . ويذكر ابن رشيد المؤلفات ، فنجد من بينها الحلة السيراء كتاباً لابن سعيد . وبه قطعت جهيزة قول كل خطيب[1].

وبعد هذا فما هو اسم هذا الكتاب ، أما المؤلف فيسميه فى مقدمته تصريحاً ولا يكنى فيقول : « فهذا كتاب الغصون اليانعة فى محاسن شعراء المائة السابعة » .

وينقل المقرى فى « النفح » (٣ : ٦٢) عن ابن سعيد فيقول : « قال ابن سعيد : وحظى الشهاب التلعفرى بمنادمة الملوك وكونهم يقدمونه ويقبلون على شعره . وعهدى به لا ينشد أحد قبله فى مجلس الملك الناصر[2] ، على كثرة الشعراء وكثرة من يعتنى بهم . ولما جمعت للملك الناصر كتاب ملوك الشعر جعلت ملك شعر الشهاب البيت الرابع من المقطوعة المتقدمة[3] . فإنه كان كثيراً ما ينشده وينوه به ، والتشوق من ذكر الشهاب ومحاسن شعره ، له مكان بكتاب : الغرة الطالعة فى فضلاء المائة السابعة » .

وهذا النقل يعطينا اسما لكتاب آخر يتفق فى غرضه ومبناه مع « الغصون » وكان أملنا فى « الشهاب التلعفرى » يقرب شقة الخلاف فإذا هو يباعد بينها . ففى «الغرة الطالعة» ذكر ابن سعيد الشهاب التلعفرى محمد بن يوسف بن مسعود الشيبانى ، وكانت وفاته سنة ٦٧٥هـ ، وفى « الغصون » ذكر تلعفريا آخر ، هو الموفق مظفر بن محمد ، وكانت وفاته سنة ٦٠٢ هـ .

فنحن إزاء نقلين صريحين لا نجد بدا من الأخذ بهما ، والإيمان بأن ابن سعيد ألف « الغصون » و « الغرة » وأن الغرض منهما واحد .

---

(١) وانظر الصفحة المصورة من رحلة ابن رشيد والتى فيها مؤلفات ابن سعيد . (لوحة رقم ٤)

(٢) يريد الناصر الأيوبى . وكانت وفاته سنة ٦٥٦ هـ .

(٣) يشير إلى بيته :

وتفردت بالجمال الذى خلا ك مستوحشاً بغير رفيق

وقد ذكر المقرى القطعة ، وأبياته سبعة .

غير أنى أعود بك إلى الظن الذى أثرته أولا ، وهو أن ابن سعيد حين بدأ بالغصون اليانعة لم يمض فيه إلى آخره . وقد يكون انتهى فيه إلى سنة ٦٥٢ ، وهى السنة التى أحال إليها وهو يتكلم عن ابن التلمسانى فيقول (ص ٣٤) : « وهو شاعر تقف على ترجمته فى سنة اثنتين وخمسين وستمائة . هذا إن أحسنا الظن . ثم لما عاد إلى الشرق راحلا بعد سنة ٦٦٦ هـ ، عنّ له أن يضع للناصر الأيوبى كتاباً — والشعر أوسع ميادينه — فذكر كتابه الذى خلفه غير كامل ، وكان حلقة من حلقات ، وما يريد أن يعنى نفسه بجديد ، فأراد أن يصل ما انقطع وأملى هذا العنوان الجديد : « الغرة الطالعة فى فضلاء المائة السابعة » .

وقلنا بتأخر هذه عن تلك ، لأن الشهاب التلعفري ، وهو أحد المترجم لهم فى « الغرة » متأخر الوفاة ، وأن وفاته كما قلنا كانت سنة ٦٧٥ هـ ، أى قبل وفاة ابن سعيد بنحو من عشر سنين . أو بعده بسنتين إن أخذنا برأى « حاجى خليفة» فى كتاب « كشف الظنون» ، وجعلنا وفاة ابن سعيد سنة ٦٧٣ هـ .

وابن سعيد مسبوق إلى هذه التسمية الجديدة . فأبو عبد الله محمد بن على بن هانىء السبتى المتوفى سنة ٧٣٣هـ له هو أيضاً « الغرة الطالعة فى شعراء المائة السابعة». ذكره « حاجى خليفة» فى « كشف الظنون » ، كما ذكره الأستاذ عبد السلام بن سودة فى « دليل مؤرخ المغرب الأقصى » (ص : ٣١٦) .

ولقد كان ورود اسم ابن هانىء السبتى على مؤلف نحو « الغصون » هو « الغرة الطالعة » مما أثار الظن بأن « الغصون » له ، لولا وفاة عاجلة لم تمهله إلى سنة ٦٥٧ هـ ، وهى السنة التى جعلها مؤلف الغصون نهاية فى التأليف [١] ، ولولا رحلة إلى المشرق صرح بها مؤلف الغصون ، وابن هانىء لم تعرف له رحلة إلى هذه الأقطار .

وأحب بعد هذا أن أحدثك حديث صفحات اثنتى عشرة وقعت ما بين

---

(١) انظر (ص : ط) من هذه المقدمة .

ترجمة «ابن دهن الحصى» وترجمة «ابن نوفل» يُشعرك خطها أولا بأنها غريبة عن النص ، كما يدلك موضوعها أنها من كتاب آخر ذى نهج مخالف .

وحاول الأستاذ «أنطونيو» أن يردها إلى أصلها فلم يوفق ولم يقطع برأى . وإن الصدفة التى وقفته على مؤلفات ابن سعيد عند ابن رشيد فتبين منها «الحلة السيراء» كتاباً لابن سعيد . هى التى جعلتنى أعنى بنصين لابن سعيد «الغصون» و «اختصار القدح» . وأنسخ هذا ثم أنسخ ذاك . فيدلنى نسخى للاختصار على أن تلك الصفحات المزيدة هنا فى «الغصون» هى من ذلك الكتاب الثانى «اختصار القدح» الذى سيظهر قريباً[1] . مع خلاف يسير أكاد أعلله الآن هنا ، بأن تلك الصفحات من «القدح» لا من «اختصاره» لهذا فهى تحمل مزيداً فى العبارة كما قد يكون الأمر أمر اختلاف نسخ ، والكلمة فى ذلك قريبة إن شاء الله تعالى .

وأخيراً فصفحات الغصون لم تكن متسقة مرتبة ، بان لى ذلك مع النسخ ، وكان أيسر الجهد كافياً لتنسيقها وترتيبها . وما أريد أن أثقل عليك بذكر مكانها الأول وما صارت إليه . وإنى أترك لك الأرقام الجانبية لتحدثك حديثها ، وتدلك على سابق وضعها .

وأظننى بعد هذا قد انتهيت من الحديث عن الكتاب ، وقد يثار جديد حوله أو شىء يمسه عند الحديث عن ابن سعيد فى البحث الذى أُعد له .

والآن فهذا نص الغصون بين يديك ، عنّانى خطه كثيراً فى بعض مواطنه ، وإنى لأرجو أن أكون كما يسرت لك قراءته جلوت شيئاً من غامضه ، وقربته لك بهذا الفهرس الموجز ، وعرفتك به بتلك الكلمة القصيرة .

وما أنا بمستطيع أن أضع القلم دون أن أزجيه ثناء طيباً خالصاً لأستاذى ،

---

(١) انظر الصفحات الثلاث المصورة (لوحة رقم ٥ و ٦ و ٧)

رب الفكر والقلم « الدكتور طه حسين » فما فرغت إلى هذا العمل إلا عن فضل له سابق أذكره فأشكره ، ثم عن عون له لاحق لا أنكره ، هذا إلى رعاية له حافزة ، وعناية كالئة ، تجعلان الحديث به يحتم .

إبراهيم الإيبارى

مصر الجديدة
١٩٤٥/٧/١٠

الجـزء الأول

من كتاب

الغصون اليانعة

في محاسن

شعراء المـائة السابعة

الصفحة الأخيرة من الغصون

(لوحة رقم ١)

الجزء الاول

من كتاب الغصون اليانعة

في محاسن

شعراء المائة السابعة

Mohamad elhafcini Historia in duas partes divisa virorum Arabum illustrium, praecipue Poetarum, etiam qui in Hispania floruerunt, aera egir. 685.

الصفحة الأولى من الغصون

(لوحة رقم ٢)

صفحة من الحلة السيراء لابن الأبار

(لوحة رقم ٣)



صفحة من رحلة ابن رشيد

(لوحة رقم ٤)



(لوحة رقم ٥) الأولى من الصفحات المزيدة

الأخيرة من الصفحات المزيدة

(لوحة رقم ٦)



صفحة من اختصار القدح

(لوحة رقم ٧)

[2 a] / بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد

أما بعد حَمْد الله عَوْداً على بَدْء ، والصلاة على خِيرة أنبيائه تبرُّكاً بذكره فى كل شىء ؛ وعلى آله وَصحبه الكرام ، والتابعين لهم بإحسان مدى الأيّام .

فهذا كتاب « الغُصون اليانعة ، فى محاسن شعراء المائة السابعة » وهو الثامن من الكتب التى اشتمل عليها « جامع طبقات الشعراء » الموسوم بـ «الحُلَّةِ السِّيَراء» .

وترتيب هذا الكتاب على ثلاثة أقسام :

الأول : فى تراجم الذين تَحقَّقت سِنُو وفاتهم .

الثانى : فى تراجم الذين لم يُوقَف منهم على ذلك .

الثالث : فيمن استقرَّ العِلم على حياته عند انتهاء / هذا التصنيف ، [2 b] وذلك فى سنة سَبْع وخمسين وستمائة .

ولما كَمُلت هذه النسخة قصدتُ بها مَن حاز الكمال ، واشتمل على محاسن الأفعال ، التى يقصُر عنها باعُ المقال ؛ وقدّمتُها إلى مُطالعة من يزيدها نَباهة ، وملاحظة من يَكْسبها حُظْوة ووجاهة ؛ مُنفِق

٢

سوق الآداب ، وبَدْر هالة الأدباء والشعراء والـكُتّاب :

لسنا نُسَمِّيك إجلالًا وتَـكْرِمةً ومَنْ يَصِفْك فقد سمَّاك للعَربِ

والله يرزقها منه القَبول ، ويُبْلغ مُصنِّفَها مِن وُدّه غاية الأمَل المَوْصول .

القِسْمُ الأول

فى تراجم الذين تحققت سِنُو وفاتهم

تراجم سنة إحدى وستمائة :

ثمان

المشارقة :

ا — من العراق :

١ — الأديب الشاعر المتصوف / شُميم الحلىّ [3a]

٢ — والشاعر البارع الحسن العبدوسى الواسطى

ب — ومن الشام :

١ — الوزير الجواد المجيد نجم الدين بن مجاور الدمشقى

٢ — والرئيس الشاعر المتقدم شمس الدين بن نفادة الدمشقى

المغـاربة :

ا — من المغرب الأقصى :

١ — قاضى الجماعة الأديب المتقن أبو عبد الله بن مروان التلمسانى

ب — ومن الأندلس :

١ — شيخ طلبة الحضر العالم الجليل الفيلسوف الأديب الشاعر النبيل أبو جعفر الذهبى البلَنْسى

٢ — والجليس المتفنن الكاتب الشاعر المتقن أبو محمد بن الياسمين الإشبيلى

٣ — والفقيه المدرس الشاعر الظريف أبو العباس بن مسعود القرطبى ، نزيل دنيسر بالمشرق

الترجمة الأولى

[شميم الحلى]

[3a] الأديب الشاعر المتصوِّف شمَيم الحِلّى / علىّ [بن الحسن][1] ابن عَنْتر ، من مدينة الحلّة[2] من مدن الفُرات العِراقيَّة . شاعر مَشْهور بالمَشرق ، مَذكور فى الكتب وعلى الألسن .

وقفتُ على ترجمته فى تاريخ بغداد لابن السَّاعِى[3] ، وتاريخ حلب لابن العَدِيم ، وكتاب الادباء لياقوت الحموىّ[4] . وتلقّيتُ جُملاً من أخباره

---

(١) التكملة من معجم الأدباء .

(٢) يريد « حلة بنى مزيد » . قال ياقوت : « مدينة كبيرة بين الكوفة وبغداد ، كانت تسمى الجامعين . وكان أول من عمرها ونزلها سيف الدولة صدقة ابن منصور بن دبيس بن على بن مزيد الأسدى . وذلك سنة ٤٩٥ هـ » .

(٣) كان أحمد بن أبى طاهر أول من ألف فى تاريخ بغداد ، ثم أبو بكر أحمد ابن على المعروف بالخطيب البغدادى المتوفى سنة ٤٦٣ هـ . وقد ذيل عليه ابن النجار محب الدين محمد بن محمود البغدادى المتوفى سنة ٦٤٣ هـ . وبالظاهرية منه نسخة برقم (٤٢) تاريخ . ثم ذيل على ذيل ابن النجار أبو بكر المارستانى . وعلى ذيل المارستانى ذيل تاج الدين على بن أنجب بن الساعى البغدادى المتوفى سنة ٦٧٤ هـ . وهذا الذيل الأخير هو الذى عناه المؤلف . وقد طبع منه بأخرة الجزء التاسع فى بغداد . ولابن الساعى أيضاً : أخبار قضاة بغداد . وله كتاب فى التاريخ كبير ، ذكرهما حاجى خليفة .

(٤) وانظر أيضاً وفيات الأعيان لابن خلكان . والذيل على الروضتين فى أخبار الدولتين لأبى شامة . وإنباه الرواة للقفطى ، وبغية الوعاة للسيوطى ، وشذرات الذهب لابن العماد . وذكر ابن خلكان أنه نقل عن تاريخ إربل لأبى البركات مبارك بن أحمد بن المستوفى المتوفى سنة سبع وثلاثين وستمائة . والكتاب كما وصفه حاجى خليفة كبير فى أربع مجلدات ، سماه ابن المستوفى : « نباهة البلد الخامل بمن ورده من الأماثل » .

وأشعاره من أُدباء العِراق والجزيرة والشام . فلخّصتُ من جميع ذلك ما يليق بهذا المكان :

جملةُ أمرِ هذا الرجل أنّ ذِكْرَه فوق شعره ، فعلى كَثْرَته لم أَقف له على ما فيه إغرابٌ ولا إبداع . ومن جملة ذلك كتابُ الحماسة[1] التى جمعها من شعره ، لَحَظْتُها فلفظتُها إذ وجدتها مَفْسولة غير معسوله . وأقربُ ما وقفتُ عليه من شِعره ، لِما يليق بالمَنْزِع المُختار لهذا الكتاب ، قولُه :

[طويل]

أَلَاهاتِهاحيثُ الجداولُ أصبحتْ تَصُولُ على أرجائها بِصِلَالِ
لدَى نَرْجسٍ يَسْبِى العُيونَ بمثلِها كأَقْراطِ تِبْرٍ كُلِّلتْ بِلَآلِ

[4 a] فهو وإن لم يأتِ بما يَظهر عليه غَوْصُ الفكر فإنه / ما قَصَّرَ فى سَبْك اللّفظ وتقريبِ المعنى وزيادة التلفيق . وأشهر ما تَقدَّمه فى تشبيه النَّرجس بالأقراط قولُ ابن عبد ربه القُرطبىّ صاحبِ العِقْد :

[طويل]

على ياسَمين كاللُّجين ونَرْجس كأقراطِ تبْر فى قَضيب زَبَرْجَدِ

نَظر إليه وإلى قول أبى الطيِّب السَّلامىّ[2] :

---

(١) رتبه على عشرة أبواب فى مجلد وضاهى به كتاب الحماسة لأبى تمام الطائى . إلا أن أبا تمام جمع فى حماسته أشعار العرب ، أما شميم فقد عمل حماسته من أشعاره وبنات أفكاره . (انظر معجم الأدباء، ووفيات الأعيان) .

(٢) السلامى ، نسبة إلى دار السلام، وهى بغداد . وإن صح فهو غير أبى الحسن محمد بن عبد الله السلامى الشاعر المعروف ، المتوفى سنة ٣٩٣ هـ .

[سريع]

انظُر إلى غُصْنٍ لوَته الصَّبا وقد غدا من زَهْرِه فى حُلَى

كأنّه جيدٌ على قامةٍ مِنْ عِقْدِه بالدُّرِّ قد كُلِّلا

ولفّق منهما ما استحقّ به اسمَ شاعر .

وتذاكرتُ فى شأن هذا الرجل مع بعض أهل بلده ، فلم يُعجبْه ما وصفتُه به من عدم غَوْص الفِكرة والنُّهوض إلى الطبقة العالية ذاتِ الإعْراب والإبداع . فجاءنى بعد أيام وقال : ما تقول أيضاً فيمن يصدُر عنه مثل هذا :

[متقارب]

أقول لآمرةٍ بالخِضاب تُحاول رَدَّ الشَّباب النَّضير

أليس المَشيبُ نَذيرَ الإلهِ ومَن ذا يُسَوِّدُ وجهَ النَّذير

فقلت : لَعمرى لقد أغرب لو لم يكن اهْتَذم(1) ذلك / من قول [4b] أبى أحمد النَّهْرجُورىّ(2) :

[وافر]

وقائلةٍ تَخضَّبْ فالغَوانى قُعود عن مُصاحبة الكُهول

فقلت لها المَشيبُ رسول ربّى ولستُ مُسوِّدًا وجهَ الرّسول

---

(1) اهتذم : اقتطع .

(2) النهرجورى نسبة إلى نهرجور ، بضم الجيم وسكون الواو وراء : بلد بين الأهواز وميسان ، فيما حسب ياقوت . وهو أبو أحمد العروضى أحمد النهرجورى . حدث على بن محمد بن نصر الكاتب قال : اجتمعت به بالبصرة فى سنة تسع وتسعين وثلثمائة . وسافرنا عنها إلى أرجان . وخرج النهر جورى معنا إلى أن تقلد أبو الفرج محمد بن على الخازن البصرة ، فى أواخر سنة اثنتين وأربعمائة ، فعاد معه إليها . ثم وردتها فى ذى القعدة سنة ثلاث وأربعمائة ، وقد مات النهرجورى قبل ذلك بأشهر . (وانظر إرشاد الأريب . والوافى بالوفيات) .

فقال : أمثل هذا الرجل تُقَصِّر به، وهو إمام فى العلماء والزهّاد !
فقلت له : الآن أرحتَ واسترحت ، إن كنتَ منصفاً لم أُقصِّر به من جهة عِلْمه ولا زُهده بل من جهة الشعر ؛ لكونكم أوجبتم له من الشهرة والتّقديم فيه ما لا يقوم عليه بُرهان. فنفض ثيابه ، وقام يَجُرُّ أَهدابه .

وقد ذكر ياقوت الحموىّ أنه اجتمع بشَميم فرآهُ كثيرَ الدَّعاوى ، خارجاً عن نمط الإنصاف والاعتراف . قال : أَنشدنى مرةً قولَه فى الخمر :

[مجزوء الكامل]

خَفَقَتْ[1] لنا شَمسانِ مِنْ	لَأْلائها فى الخافقَيْنِ
فى لَيْلةٍ بَدَأَ السُّرُو	رُ بها يُطالِبنا بدَيْنْ
ومَضَى طَلِيقَ الرَّاحِ مَنْ	قَدْ كانَ مَغْلُولَ اليَدَيْنْ

[5a] قال : فقلتُ: أَحسنتَ ! فغضبَ وقال : ويحك ! ماعندكَ / غيرُ الاستحسان ؟ فقلت : فما أَصنع ؟ قال : تصنع هكذا ، ثم قام يرقُص ويصفِّق . وجلس وهو يقول : ما أصنع ! وقد بُليت ببَقر لا يُفرِّقون بين الدُّرّ والبَعر ، والياقوت والحجر[2] !

قال: وكان قد جال البلاد واستقر بالموصل، فمات بها فى ربيع الآخر سنة إحدى وستمائة .

---

(١) الأبيات من قطعة تبلغ أبياتها عشرة ، ذكرها كلها ياقوت فى معجمه .
(٢) الحديث هنا يخالف ما رواه ياقوت فى معجمه فى بعض ألفاظه .

ومما ذكره المؤرِّخون من أمره أنه كان من أعلام فُقهاء الشيِّعة بالحِلّة ، وأهل الفُتيا والإقراء عندهم . ثم ترقَّى إلى الزهد بزَعْمه واطّراح الدنيا ، وصار يُكثر الخَلْوة ويَصِل الصوم ، إلى أن كان يزعُم أنه يبلغ شهراً لا يأكل ولا يشرب ، في يوم ولا نهار منه .

وكثير من أمثاله عاينتُهم ببلاد المشرق يبلغون في الخلوة هذا المقدار وأكثر ، ويُجعل عليهم أُمناء وحُرّاس من قِبَل الملوك والكبراء لتتبيَّن حقائقُهم ، فيُشار إليهم بعد ذلك بالأنامل ، وتلتفّ عليهم هالاتُ المحافل .

ومن تاريخ ابن / العديم[1] : أنّ شميماً بلغ في الخَلْوة إلى أن كان [5 b] يصل الصومَ ، ثم يأكل الطينَ فينزل برَجيعٍ ما فيه رائحة ، ويُشِمّه مَن يدخل عليه ليعلم مقدار مبلغه من الرياضة ؛ فلذلك لُقِّب بشُميم .

وحَكى لى أحدُ فضلاءِ ماردِين[2] أنه وَرد عليها ونزل حيث لا يَخفى مكانُه ، لما كان عليه من التهويل واستعمال المخارق . فأرسل إليه ملكُها ابن أُرْتُق[3] في أن يحضُر عنده . فقال للرسول : كيف أسير

---

(١) يريد « تاريخ حلب لابن العديم » . وعنه ينقل ابن سعيد ، وقد ذكره كاملاً (ص ٢٨) من هذا الكتاب . وثَم كتاب آخر لابن سعيد ، هو زبدة الحلب .

(٢) ماردين ، بكسر الراء والدال : قلعة على قمة جبل الجزيرة مشرفة على دنيسر ودارا ونصيبين . كان فَتْحها وفتح سائر الجزيرة أيام عمر بن الخطاب سنة تسع عشرة وأيام من محرم سنة عشرين . (انظر معجم البلدان لياقوت) .

(٣) كان على ماردين ابن أرتق قطب الدين ، وكانت وفاته سنة ٥٨٠ هـ . كما كان عليها بعده ناصر الدين أرتق ، وهو ولد قطب الدين السابق . وكانت وفاته ٦٣٧ هـ . (انظر وفيات الأعيان ، والنجوم الزاهرة ، وابن الأثير) .

إليه وأنا الذى أقول :

[مخلع البسيط]

أنا الذى لو دَرَى زمانِى　　قَدْرِىَ ما كان غيرَ عَبْدِى

ولم يَزلْ واقفاً بيـــابى　　ولم يُصَرِّفْ خلاف قَصْدى

فعاد الرسولُ بالجواب . فضحك الملكُ وقال : هذا رجل مَجنون أو مُستخفّ ، وعلى الأمرَيْن ينبغى لنا أن نرى ما عنده . ثم ركب إليه واجتمع به وانصرف ، وقال للرسول : قل له : كان فلان قد نَظَر لك فى ضيافةٍ وزادٍ قبل أَن يشاهد ما عندك ، فلما شاهده علم أنّ قَدْرك / يَجِلّ عن كل ما عنده . فلما عاد إليه الرسول بذلك ، التفت إلى أحد [6 a] أصحابه وقال : أىّ ولد زِنى ! وسمع ذلك الرسولُ فرجع وهو يضحك . فقال له الملك : ما كان جوابه ؟ قال : سَكت . قال : سُبحان الله ! أمن السكوت يكون ضَحِك ؟ فأخبره . فضحك حتى فَحص برجلَيْه وقال : الرجل مُمَخْرِق ، وقد علم أن مَخْرقته لم تَجُز علينا فجعل هذا فصلَ ما بيننا وبينه .

وأخبرنى ابنُ الصفَّار الدِّينورى (١) أنّ شُميما اجتاز بمدينة دُنَيْسِر (٢) ،

---

(١) هو جلال الدين على بن يوسف بن شيبان ، كاتب شاعر . استكتبه الملك المنصور ناصر الدين أرتق صاحب ماردين . وله كتاب فى الأدب سماه « أنس الملوك » . ولد بماردين سنة خمس وسبعين وخمسمائة . وقتله التتر لما دخلوا ماردين سنة ثمان وخمسين وستمائة . (فوات الوفيات) .

(٢) دنيسر ، بضم أوله : بلدة من نواحى الجزيرة قرب ماردين بينهما فرسخان ، وتسمى أيضاً : قوج حصار . (معجم البلدان) .

فصادف أن كان بها صاحبُ ماردين ، فبلغه نزولُه فى بستان هنالك ، فركب كأنه يتفقّد البستانَ ، وغرضُه الاجتماعُ به . فقيل له : إن السلطان قد دخل البستان . فقال : ومن مَنعه ؟ ولم يَقُم له ولا لَقِيه . فصعُب على صاحب ماردين ذلك ، وأظهر أنه جاء للفُرجة ، وانصرف ولم يجتمع به . وجاءه مَن عَتَبه فى ذلك . فقال : كنت فى مُناجاة سُلطان أعظمَ منه . فقال صاحب ماردين : رُحِم عِيالُه ! / ولو كان الجُنَيد .[1] [7 a] ودَسّ إليه من يُؤذيه حتى خرج عن بلده .

---

(١) هو أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادى الخزاز ، صوفى . توفى ببغداد سنة ٢٩٧هـ . (انظر الكامل لابن الأثير ، وحلية الأولياء) .

الترجمة الثانية

[العبدوسى]

الشاعر البارع الُحسن العَبْدوسىّ محمد بن عَبْدوس الواسطىّ[(١)] ، من مدينة واسط . أطلعتْه واسطةً من عقد شُعرائها ، فترقّى إلى مُخالطة كبرائها وأُمرائها ، ثم جال حتى اُنتهى إلى الديار المصرية ، ومدح بها العادل[(٢)] وأرباب دولته ، ومدح الظاهر[(٣)] صاحب حلب بما اجتمع منه سِفْر . ذكر ذلك صاحبُ تاريخها . ولم يُعجبنى من جميع ما أَورد من شعره غيرُ قوله فى الملك المذكور :

[بسيط]

أشتاقُه شَوْقَ مَصْدودٍ وكم حَملتْ أُمُّ الأمانى برؤياه فلم تَلِدِ

وطبقته أعلى من هذا بأضعاف . ذاكرتُ أحد علماء بلدى فى شأنه، فنوّه بأسمه وأَنشدنى له ما اخترته / لكتاب « كنوز الأدب » ، وهو [6b] قوله الذى أبدع فيه وأغرب :

---

(١) قال ابن الأثير فى وفيات سنة ٦٠١ : « وفيها فى صفر توفى أبو على الحسن بن محمد بن عبدوس الشاعر الواسطى . وهو من الشعراء المجيدين ، واجتمعت به بالموصل . وردها مادحاً لصاحبها نور الدين أرسلان شاه وغيره من المقدمين . وكان نعم الرجل، حسن الصحبة والعشرة » .

(٢) هو الملك العادل أبو بكر محمد بن أيوب ، أخو السلطان صلاح الدين. استقل بمصر سنة ٥٩٦ هـ . وكانت وفاته سنة ٥١٦ هـ .

(٣) هو الظاهر الأيوبى غازى بن صلاح الدين . ولى حلب سنة ٥٨٢هـ . وبقى عليها إلى أن مات سنة ٦١٣ هـ .

[سريع]

أهــــلاً وسهلاً بالعِذَارِ الذى أَصبحتُ فى شُغْلٍ به شاغلِ

خَطّان صِيغتْ منهما فى الهوَى « لا » وهى حرفُ النَّهْى للعاذل

يا سائِلى عن أمرها نُكتةً أَضحى بها كالقمَرِ الكامل

كأنها ذاكَ السَّـــوادُ الذى تُبْصِره فى البَدْرِ يا سائلى

فَجْر الصِّبا فى وَجْنتِيه غـــدَا يَمُوج مثلَ البَحر الجائل

أما تُراه إذ طَفا ماؤه قد قَذَف العَنْبرَ فى الساحل

وقد أُزدحم على مَشْرع هذه الأبيات جملةٌ من شعراء عصره ، فما بلغوا فيه إلاّ دون قَدْره .

وقولَه ، وهو غير خارج من « كنوز الأدب » :

[مجزوء المديد]

وبديعٍ أَطْلع الآ سَ برَوْض الجُلّنَارِ

رُمْت منه لَثْمةً إذ عِيلَ فى الُحبّ أصْطِبارى

قال لى لا تُدْنِ أَنفَاَ سَكَ مِن نَبْت العِذَار

إننى أَخشَى عليــه منك مِن لَفْح الأُوَار

قلت دعْنِى من رَقاعا تك وأُسمع لأعتذارى

[7b] / هو كالعَنْبرِ يَذْكُو طِيبُه مِن غير نار

فأنثنَى يَبْسِم عن جَمْـــرِ شَبِيه بالدَّرارى

فرتَعْنا فى رِياضٍ وكَرَعْنا فى عُقَار

أىّ خَمْر أنا منها طولَ عُمرى فى خُمَار

وهو من الشعراء الذين حُفِظ ما قالوه فى الجارية التى صنعت فى أحد خدّيها بالغالية حَيَّةً وفى الآخر عقرباً ، فأمر الملك العزيز[١] صاحب مصر أن يقال فيها . وكان قول العبدوسىّ : [سريع]

يا معشرَ النّاس ألاَ فاُعجبوا مِن قمرٍ حَلَّ به[٢] العَقْربُ
وحَيّة مَيِّتة أُرْسِلَت فى جَنّة تَلْدغ مَن يَقْرُب
يا مُظْهِرًا آية مُوسَى لنا إليكَ مِن دُون الهوى المَهْرب

وكانت وفاته بمصر سنة إحدى وستمائة ، بعد ما أكثر من هجائها وذمّ أهلها . ومن أعفّ ذلك وأبدعه قولُه : (مجتث)

يأهلَ مِصْر مَدحتُمْ مِصرًا بلا بُرْهانِ
وقُلتمُ هِيَ عينٌ نَعَمْ بِلا[٣] إنسان
/ أرضٌ عَدِمْنا لديها عوارفَ الإحْسان [8 a]
وكُلَّ بِرٍّ تراه فإنه فى اللِّسان
يومَ ارتحالىَ عنها جعلتُه مِهْرجان

وكان قد اُتصل بالوزير ابن مُجاور[٤] ، فلما بلغ الغاية من الاُستيلاء على دولة العَزيز، لمّا اُستبد بالديار المصرية ، قَصَّر به ، فأنشده :

---

(١) هو عماد الدين أبو الفتح عثمان بن يوسف بن أيوب . استقل بملك مصر بعد وفاة أبيه بدمشق سنة ٥٨٩ هـ . ولد بالقاهرة سنة ٥٦٧ هـ . وبها توفى سنة ٥٩٥ هـ . (انظر وفيات الأعيان ، والمقريزى ، ومفرج الكروب) .

(٢) العقرب : من الهوام ، وبرج فى السماء . والتورية هنا مرادة ، ولذا كان عجبه .

(٣) الإنسان ، للعين ، وواحد الناس . وأسمج به موريا .

(٤) ستأتى ترجمته . وهو ثالث من ترجم لهم المؤلف .

[طويل]

عجبتُ لبحرٍ جاد لِى عند جَزْره ولم أَرَ جُوداً منه إذ جاءه المدُّ

لعلّ له عُذراً على كُلِّ حالة هو المَلِك الأَعلى يَداً وأنا العبدُ

فقال : ما ثَمَّ عُذر ، لكن هذا شأن الدّهر ، وعلى هذه الحال مَرَّت الليالى والأيام ، ولقد أحسنتَ إلىّ إذ ذكَّرتنى بفضيلة . ثم أحسن إليه وسَعى له فيما أقرّ عينه عند صاحبه . ومدحه بقصيدة منها :

[سريع]

يا سائِلى عمّا رأى من كُساً ونِعْمة يَقصُر عنها الكلامْ

قد كنتُ ذا جَدْب ولكنّنى أفلحتُ فاستمطرتُ صَوْبَ الغَمام

قام بأَمْرِى سيِّدٌ ماجِدٌ ذَكَّره عَتْبِىَ رَعْىَ الذِّمَام

/ مُبارَكُ الطَّلعة مَيْمونُها يَبْدأ مَن يَخدُمه بالسَّلام [8 b]

قد جَرَّب الدهرَ وأحوالَه واُختار أَخلاق جميع الكِرَام

ومن محاسن شعره قولُه :

[بسيط]

لله ذو أَدَبٍ حُلْوٍ شمائلُه لُقْياهُ أَطْيبُ لى من جُملة النِّعَمِ

أَمسى يُحدِّثنى والكأسُ فى يده فَبِتُّ أشربُ راحَ الكَرْم والكَرَم

وأُنشدت له بالعراق هذه الأبيات ، وهى ممّا يُرتاح إليها فى السماع ، ويَهتزُّ لما اشتملت عليه كُلُّ كريم الطِّباع :

[بسيط]

لَيلِى بلا سَحَرٍ مِن ساحِرِ الحَوَرِ أشتاقُه وهو مُشتاق إلى السَّحرِ

ولو أَتَى زائراً ما كان يَمْنعنى لقُرب ما بين حال الوِرْدِ والصَّدَرِ

فاللَّيلُ عندى سواء إنْ دَنَا وقَلاَ　　أَشْكومن الطُّول ما أَشكومن القِصَر
يا خالياً حالياً بالْحسن ها كَبدى　　أَمستْ بلا جَلَد قَوْساً بلا وَتَر
الظَّبْي أَنت وقدحُوشيتَ من خَنَس　　والبدرُ أَنت مُوَقًّى كُلْفةَ[١] الغِيَر
والخَمْرُ أنتَ ولكنْ سُكْرها أبداً　　والغُصن أنت ولكن دائمُ الزَّهَر
لا جَفَّف اللهُ عَينى من هَواكَ ولَا　　مُتِّعتُ مِن غير ذاكَ الوَجْه بالبَصَر

[9 a] / ورأيت جماعةً من أُدباء العراق يتطاولون بإنشاد هذه الأبيات ويفتخرون بها ، وهى لعمرى أهلٌ لذلك ، إلا أن بيته الذى هو واسطةُ القِلادة مَسروق من قول اللّص الإشبيلى[٢] :

فالليلُ إنْ هجرتْ كالَّيل إن وصلتْ[٣]
أَشكو من الطُّول ما أَشكو من القِصَرِ

---

(١) الخنس ، بفتحتين : قريب من الفطس ، وهو لصوق القصبة بالوجنة وضخم الأرنبة ، وهو وصف خاص بالظباء والبقر . والكلفة : حمرة كدرة . وقيل : هى لون بين السواد والخضرة .

(٢) هو أبو العباس أحمد بن على بن محمد — وقيل : أحمد بن محمد بن على — ابن عبدالملك بن سيد الكنانى الإشبيلى ، ولقب باللص لإغارته على أشعار غيره . وهو أحد من أنشد عبد المؤمن بجبل الفتح عند جوازه البحر للأندلس . كانت وفاته سنة ٥٨٧ من الهجرة . وقيل : ثمان وثمانين . كما كان مولده سنة ٥٠٢ هـ وقيل : ٥٠٣ هـ . (انظر نفح الطيب ، وبغية الوعاة للسيوطى ، والمطرب لابن دحية ، ورايات المبرزين) .

(٣) رواية هذا الشطر فى نفح الطيب :

* فالليل إن وصلت كالليل إن هجرت *

وهذا كما قال الملك الأشرف[1] لبعض الشعراء وقد مدحه بقصيدة فيها أبياتٌ سَلَخ ألفاظها ومعانيها من شعر غيره : أما تستحى أن تُنشدنى لنفسك ما أحفظه لغيرك ؟ فقال : يا سلطان ، قد يقع الحافرُ على الحافر . فقال : نعم ، ولكن للميدان كلِّه لا . فضحك جميعُ من حضر من أهل الأدب . وصار ذلك الشخص عندهم يُعرف بالميدانىّ .

وأخبرنى بدمشق أحدُ أقارب الصفىّ الأُموى[2] كاتب الملك الأشرف بن العادل بن أيوب ، أن ابن عَبْدوس وصل إلى الملك الأشرف وهو حينئذ بالجزيرة فى مدة أبيه ، والحال ضيقة ، فحضر مجلسَه وأنشده قصيدةً منها :

[كامل]

/ مَلِكٌ شَكَكْنا أيُّها أعلَى عُلاً ... أُولاهُ أم وُسْطاه أم أُخْراه [9 b]

لَمّا عَـــلا فوق الأَنام مَحلُّه ... مَسحتْ عليهم كالسَّحاب يَدَاه

أَشتاق رُؤْيتَه لأنّىَ واثقٌ ... أَلاّ أَرَى بُؤْساً متَى أَلقاه

فضحك الأشرف لمّا أنتهى إلى هذا البيت وقال : ذهب البوس يابن عبدوس . إلا أنه نحن على ما لا يَخفى عنك فى هذا الوقت ، فأيما

---

(١) هو الأشرف موسى بن محمد العادل بن أيوب . ومن آثاره دار الحديث الأشرفية بدمشق . ولد بالقاهرة سنة ٥٧٨ه . وتوفى بدمشق سنة ٦٣٥ه . (انظر وفيات الأعيان) .

(٢) هو صفى الدين عبد الله بن على بن شكر . أصله من الدميرة ، إحدى قرى مركز طلخة بمديرية الغربية . وزر للعادل . ومات بالقاهرة سنة ٦٣٠ه (انظر النجوم الزاهرة) .

تختار : يَسيرٌ مُعجَّل ، أو كثير مؤجل ؟ فقال : يا خُوَند[1] ، إنما يصبر على المؤجَّل التُّجار أصحاب رءوس الأموال ، وأما المُفلسون الذين رءوس أموالهم الأشعار مثلى وأشباهى فإنما هم أبناء يومهم . قال : صدقتَ ، والتفت إلى الصّفىّ كاتبه وقال : بحياتى عليك إلا ما أجزته عنى . فقال : نعم وكرامة . وانصرف به إلى منزله ، وحَلف له أنه ما يملك فى ذمته شيئاً يقدر على خروجه عنه والتعوّض منه إلا البغلة التى يركبها ، ودَفعها إليه وألبسه ثيابه التى كانت عليه . فَجُنّ فرحاً ، وأطنب فى الثناء / على الملك والكاتب وقال : هذا عندى فى هذا [10a] الوقت خير من عشرة آلاف دينار فى وقت آخر .

قال : وهكذا كانت أفعال الملك الأشرف فى أكثر الأوقات ، إذ كان أعرفَ الناس باستجلاب الثناء فى كل وقت وبكل ما أمكن .

قال : ومما أنشده لنفسه فاستحسنه الصفىُّ وكَتَبه ، قولُه :

[مخلع البسيط]

أُسمعْ أخِى مِن أخٍ اُختبارٍ قد شَيَّبت رأسَه الرِّجالُ

إيّاكَ أَن تَشْتفى بقولٍ فيـــه على ربِّه وَبَال

وَبلِّغ النَّفْسَ ما تَمنَّتْ إذا تأتَّى لك الفَعال

---

(١) خوند (khowand) : لفظة فارسية بمعنى : سيد أو أمير . (انظر : F. Steingas. Persian-English Dictionary.)

الترجمـــة الثالثة

[ابن مجاور]

الوزير الجواد المُجيد نجم الدين بن مُجاور يوسف بن الحسُين .

بيت بنى مُجاور بدمشق مشهور إلى الآن . لزمهم هذا النَّسب من جدّهم ، رفض جَنّة الدنيا دمشق ولزم المجاورة بمكة ، فعُرف بالمُجاور .

ونشأ نجم / الدِّين مُتغذِّياً بتلك الطريقة ملتزماً قراءة القرآن [10 b] وإقراءه ، واتخذ مكتباً يُعلم فيه الصبيان على باب جامع دمشق . وسَمَتْ همّته إلى إقراء النحو والأدب ، واستفاد من ذلك ما علَّم به أولاد الكُبراء ، إلى أن احتاج السلطانُ صلاح الدين معلِّماً لابنه العزيز[1] ، فدُلّ عليه ، ووُصفت طريقته الحميدة فأخذت السعادةُ بيديه .

وأنس به العزيزُ فساد بخدمته فى بلده وغير بلده ، ووكَّله فى أول الحال ، ثم استوزره فى نيابته عن أبيه بمصر ، ثم فوَّض له جميع أمور دولته لما مات أبوه واستبدّ بالسلطنة . وكان أهلاً لذلك ، لِما جمع من الفضائل والآداب ومكارم الأخلاق .

وكان معروفاً بتوطئة الأكناف ، ومعاونة الأدباء والشعراء ، والأخذ معهم غيرَ متميِّزٍ عنهم ، حتى كأنّه إذا باحثهم واحدٌ منهم ، مع ارتقاءٍ فى الشعر إلى الدرجة التى تأخذ بمجامع القلوب والألباب ،

---

(١) سبقت ترجمته (فى الحاشية ١ ص ١٨) .

[11a] / وترتفع عن طبقة العلماء والأدباء والكتّاب . ومَنْ أمعن الفكر فيما أُورِدَ له فى هذا المجموع علم أن له فكرةً غواصة ، وأن معانىَ الإغراب وألفاظ الإبداع ليست عليه بمُعْتاصة .

ومن الحكايات المُستطرفة المُتعلقة بترجمته أنّ أبن مُنذر البَطَلْيَوسى لما وَرد من المغرب أعترضه وهو قاصدٌ دار السلطان ، فكلّفه رفعَ بطاقة إليه فى مرتّب يستعين به على طلب العلم . فأعلمه أنّ الكلام فى إجراء راتب مُخترع لا يمكن . فقال : فإن لم يمكن هذا فاكتُب إلى الفقيه فلان فى أن يُنزلنى عنده فى المدرسة ويُجرىَ لى من الوَقف ما يكفينى . فقال : ليس هذا من شُغلى وإنما هو من شُغل متولِّى الأوقاف . فأظهر أنه لا ينفصل عنه إلا بالنظر فى أمره ، وجعل يُورد عليه من أنواع التَّكليف ما يرُوغ الوزيرُ عنه / إلى أن أضجره . [11b] فأراد الانفصالَ عنه فقال : يا هذا ، أعلم أنه من كَلَّف ما لا يُقدر عليه أتعب لسانَه وسَمْعَ من يُكلِّمه . فقال : أيها الوزير ، أَتَعِد إن أنا كلفتُك ما تستطيع لم تعتذر لى عنه ؟ قال : ما أعتذر لك عن شىء أستطيعه . قال : وأنا أيضاً فما أُكلفك إلا أن ترجع إلى تعليم الصِّبيان فِى المكتب الذى كنتَ فيه ، فتستريحَ أنت مِن كُلَف الناس ويستريح الناسُ من هذه الوزارة الخراء التى لا فائدة فيها ، وقد شغلت مكانَها عن مُستحقها ممن يفرح بقضاء حوائج الناس ، ويتكلّف المشقات فى تَخليد شُكرهم . فضحك الوزيرُ ضحكا لم يُعهد منه مثله ، وقال له :

أىْ وأنت على هذا المنزع ، وفيك هذه الحلاوة ، ولستَ من المغاربة الْجفاة ، ففيك مُصْطنَع ، ونَبلغ إِن شاء الله فى شأنك فوق ما تقدر عليه . وحَمَله معه حتى أدخله على العزيز ، فأعاد عليه ماجرى بينه وبين الوزير. / فضحك وأستطاب القصة وصيّره من خواصه وانتفع بخدمته غاية [12 a] الأنتفاع . حتى أشتهر ذكره وصار كالوكيل والأمين ، وانتقل بعد ذلك إلى حلب فصار فى خدمة أخيه الظاهر[1] .

ومن الحكايات التى أُخترتها لكتاب « روح الأدب » وشعرُها من « كُنوز المعانى » ما أخبرنى به أبو بَيَان الإسرائيلى[2] حكيم الديار المِصْرية وبقية المُعمَّرين من أشياخها ، المُمازجين للملوك وأرباب الدُّول ، قال : أُهدى للملك العزيز بن صلاح الدين مملوكٌ من القَفْجق[3] ، كما دبّ عِذارُه بشُقْرة ، لا يراه أحدٌ فيقدر أن يَثنِىَ عنه بَصره . فقال

(١) هو الظاهر الأيوبى غازى بن صلاح الدين يوسف بن أيوب . ولد بالقاهرة سنة ٥٦٨هـ. وولاه أبوه حلب سنة ٥٨٢هـ. وبقى فيها إلى أن توفى بقلعتها سنة ٦١٣ هـ . (انظر ابن خلكان ، والكامل فى التاريخ) .

(٢) هو أبو البيان بن المدور ، لقب بالسديد . وكان يهوديا قراء عالماً بصناعة الطب . خدم الخلفاء الفاطميين فى آخر دولتهم . وبعد ذلك خدم الملك صلاح الدين. وكان يرى له ويعتمد على معالجته ، وعمر طويلا. وتعطل آخر عمره من الكبر والضعف . توفى سنة ٥٨٠ هـ (انظر عيون الأنباء ٢ : ١١٥) .

(٣) ذكر البيهقى أنهم الخفشاخ الذين صاروا يعرفون بالقفجاق ، وكان لهم ملوك كثيرة ، ففرق التتر شملهم .

وقيل إن بلادهم هى بلاد أزبك ، أرض القبائل الذهبية التى كانت تمتد شمالى بحر بنطش وبحر قزوين إلى منابع نهرى أرقش وأوبى من سيبريا . (انظر تقويم البلدان ، والنجوم الزاهرة ١٠ : ١٩٦ . ودائرة المعارف الإسلامية فى رسم : Kipchak) .

الملك العزيز لجلسائه الأُدباء : نجعل هذا المملوك الجديد ساقينا اليوم . فلما أُستقرّ مجلسُ الأُنس — وفيه جعفر بن شمس الخلافة[١]، والأسعد ابن ممَّاتى[٢] ، وهما حينئذ الغايةَ فى طبقة الشعراء ، وهناك من يَشْعُر غيرهما — قال لهم ، وقد أخذت / الكأسُ منهم وأزالت حجاب [12 b] الحياء عنهم : هذا مكان الأفكار وإجالتها ، وأشار إلى المملوك . فأفكروا ساعةً فلم يحضُر لهم ما يرضوْنه ، فقالوا : يا مولانا ، إن الوزير نجم الدين له شغف بالمعذَّرين وأوصافهم ، بفكرة منقادة لتعلّقه بهم ، وما لهذا إلا خاطرُه . فقال : نَسُرُّه بالمشاركة فى هذا الشأن ولا نضيره بالاستدعاء للحضور على مالا يريده . ثم أمر بالكَتْب له فى ذلك . فوصل جوابُه بهذه الأبيات التى لا نظير لها فى حُسنها ، ولا عديلَ لقصدها فى فَنِّها :

[سريع]

غُصْنٌ من الفِضَّةِ قد أَوْرَقَا ... بالتِّبْرِ مَن فاز به وُفِّقَا

رَوَّاه ساقِى الُحسن من مائه ... فبان فى أَعلاه ما قد سَقَى

ومُنْتَهى الأَحْرُف من خَطِّه ... فى جانبَىْ صُدغيه قد عُرِّقا

(١) هو الشاعر المشهور أبو الفضل جعفر بن شمس الخلافة أبو عبد الله محمد بن شمس الخلافة مختار الأفضلى الملقب بمجد الملك . له ديوان شعر . ولد فى المحرم سنة ٥٤٣ هـ . وتوفى سنة ٦٢٢هـ بالكوم الأحمر ظاهر مصر . (انظر وفيات الأعيان) .

(٢) هو أبو المكارم أسعد بن مهذب بن مينا بن زكريا بن أبى قدامة ابن أبى مليح مماتى (بفتح الميمين والثانية منهما مشددة) . كان ناظر الدواوين فى الديار المصرية . ولد بمصر سنة ٥٤٤ هـ . وكانت وفاته بحلب سنة ٦٠٦ هـ . ومن مؤلفاته : قوانين الدواوين . ونظم سيرة السلطان صلاح . (انظر وفيات الأعيان ، ومعجم الأدباء ، وإنباه الرواة) .

يا حُسْنَه نُونًا بماءٍ جَرَى ودارَ كالعَقْـرب كى يُتَّقَى
فاغتنِمُوا بدراً بَدَا كاملاً فى شَفَق مِن قَبل أن يُمْحَقا
لا أَبصرتْـه مقلةٌ ذاوياً ولا رأت زُخرفَـه (١) مُحْرَقا

[12 a] / فطرب الملكُ العزيز ، ووالَى الشُّرْب وأَمر المُغنى بالغناء فيها . ثم قال للخازن : أَحضِر جميع ما أُهدى إلينا معهذا المَلوك . فأُحضِر وقُوِّم ، فكانت قيمته عشرة آلاف دينار مِصرية . فقال : لو أن نجم الدين كمَّل أبياته عشرة لفاز بجملتها ، ولكن يأخذ منها ستة آلافٍ ويقتسمون الباقى .

ثم أطال النظر فى المملوك فقال له : كُن أنت الرسول إليه بهذا ، وأنت من جُملة ما حبَوْناه به .

قال أبو بيَان : فلا ندرى من أى شىء نعجب ، فهل ممّا تضمّنته هذه الحكاية من الأخلاق الملوكيّة ؟ وهى على ما جمعْته نقطةٌ من بحار فضائله رحمة الله عليه ، فما ملك مصرَ مثلُه .

ومما استحسنه الملك العزيز ، فأمر شعراءَه بالقول فيه ، قصة الجارية التى صَوَّرَت فى خدِّها بالمِسك حيَّة ، وكان الذى قال فى ذلك وزيره المذكور (٢) .

---

(١) محرقاً : قد أصابه الحرق فذهب بمباهيه .

(٢) انظر شيئاً حول هذا (ص ١٧) فى الترجمة الثانية السابقة ، وهى ترجمة العبدوسى .

[سريع]

قد رَقَمتْ في خَـــدِّها أَرقماً بالمسْك في مُذْهبٍ ثوبٍ طَسِيمْ[١]

ما ذاق مَن قابلهُ غَفْوةً يا عجباً مِنْ ساهرٍ بالرَّقيم[٢]

مُرْسَلَة بالحُسْن قد أَظهرت في نار إبراهيم أَيْم الكليم[٣]

ووقفتُ على ترجمته في تاريخ حلب لابن العديم فوجدتُ هنالك أَنه مات سنة إحدى وستمائة .

وقوله الطيّار لخفّته على الألسن وحُسْن منزعه :

[طويل]

ولما تولّى الخــدَّ والِى عِذَارِهِ رفعتُ إليــه قصّــتى أَتظلَّمُ

فوقّع فيهـــا خَطّه بصَبَابتى وقال لى السُّـــلوان شىء مُحرَّم

أَتلبس ثوبَ الخدّ إذ كان ساذجاً وتَخلعه لمّا بدا وهو مُعْلَمَ[٤]

ثم وجدت الشهابَ القُوصىَّ[٥] قد أَثنى عليه فى كتاب « تاج

---

(١) طسيم ، بمعنى مطسوم ، وهو ما علاه الغسم والظلمة ، وهو بالخد الذى مازجه سواد المسك أشبه .

(٢) الرقيم ، قيل : هو اسم الجبل الذى كان فيه الكهف : كما قيل إنه اسم القرية التى كانوا فيها . ويشير إلى نومة أهل الكهف وينكر أن يكون من بينهم يقظ ساهر .

(٣) الكليم ، هو موسى عليه السلام ، لأن الله كلمه . وأيمه ، حيته ، وقصتها معروفة .

(٤) المعلم من الثياب : المرسوم المرقم .

(٥) هو أبو الحامد، وأبو العرب ، وأبو الفداء ، وأبو الطاهر إسماعيل بن حامد بن عبد الرحمن الفقيه الشافعى . توفى سنة ٦٥٣ هـ عن ثمانين سنة . (انظر النجوم الزاهرة ، والطالع السعيد) . وكتابه « تاج المعاجم » فى التاريخ . وهو فى أربعة مجلدات كبار وقد أخبرنى صديقى الأستاذ صلاح المنجد أن منه مخطوطة بالمكتبة الظاهرية .

المعاجم » وأنشد له قولَه ، وهو من المحاسن التى لا يجب أن تُغفل :

[كامل]

يا ثَغرَه المَحْمِىَّ منـــه بنابلٍ ... من طَرفه وبسائف من خَدِّه

وبمُشرقٍ من صُدْغه وبناظرٍ ... من خاله وبعاملٍ من قَدِّه

ارفُق بما اُغتصب الغرامُ فقد أتى ... خَطّ العِـــذار موقعاً فى ردّه

وأَنشد له ابنُ المُستوفى فى تاريخ إرْبل[1] :

[سريع]

ليت رقيـــبى لم يكُن أَحولَا ... إذ لم يكن أَعْمَى ولا أَعْــوَرا

لأنـّ مَن يبْصر مِن واحدٍ ... شَيْئين أَولى الناس أَنْ يُحْذَرا

وجرى ذكره يوماً بحضرة الصاحب بهاء الدين زُهير[2] صاحب الأشعار الرقيقة الطائرة فى أقطار الشرق والمغرب ، فقال : ودِدْتُ أن لى قولَه بكثير من شعرى ، فما سمعت أظرف منه :

[وافر]

صَـــدِيقٌ قال لى لمّا رآنِى ... وقد صَلَّيتُ زُهداً ثم صُمْتُ

على يدِ أىّ شَيخ تُبتَ قُل لى ... فقلتُ على يد الإفلاس تُبْتُ

---

(١) هو أبو البركات المبارك بن أبى الفتح أحمد بن موهوب بن غنيمة بن غالب اللخمى ، الملقب بشرف الدين ، والمعروف بابن المستوفى ، جمع لإربل تاريخاً فى أربع مجلدات . وفيه يقول ابن خلكان : « وقد أحلت عليه فى هذا الكتاب فى مواضع عديدة » . ولد بإربل سنة ٥٦٤ هـ . وتوفى بالموصل سنة ٦٣٧هـ . (انظر وفيات الأعيان . وبغية الوعاة . والحاشية رقم ٤ ص٩ من هذا الكتاب) .

(٢) هو بهاء الدين زهير بن محمد بن على بن يحيى المهلبى العتكى الكاتب الشاعر . ولد بمكة سنة ٥٨١ هـ .ونشأ بقوص واتصل بخدمة الملك الصالح نجم الدين بمصر فجعله من خواص كتابه . وكانت وفاته سنة ٦٥٦ هـ . ودفن بالقرافة الصغرى بالقرب من قبة الإمام الشافعى . (انظر وفيات الأعيان) .

الترجمة الرابعة

[ابن نفادة]

الرئيس الشاعر المُتقدِّم شمسُ الدولة أَحمد بن نَفادة السُّلمى الدّمشقىّ.

كان عند السُّلطان صَلاح الدِّين بن أَيُّوب فى عِداد رُؤساء الأَجناد الذين يُسمونهم بالأُمراء .

ذَكر الشِّهاب القُوصى فى « تاج المعاجم » أَنه كان جليلَ القَدْر بعيدَ / الهمّة أديباً شاعراً . [14b]

وُلد بدمشقَ سنةَ إحدى وأَربعين وخَمسمائة ، ومات بها فى محرَّم سنة إحدى وستّمائة .

وأَنشد له — مما طَوَّل فيه من الأَشعار — ما يَدُلّ على اُقتداره وطُول نَفَسه .

ومما يُعدُّ من « كنوز الأدب » قولُه ، وقد دَخل على الفاضل البَيْسانى[1] مُهنِّئًا له :

[سريع]

قد عُوفِى الفاضلُ مما شَكا   وصَحَّ من سائِر آلامِهِ

---

(١) هو أبو على عبد الرحيم بن على بن محمد بن الحسن بن الحسين بن أحمد بن الفرج بن أحمد اللخمى ، العسقلانى المولد، المصرى الدار . وبيسان ، التى ينسب إليها : مدينة بالأردن بالغور الشامى .

وزر لصلاح الدين وكان أثيراً عنده . ولد سنة ٥٢٩ هـ بعسقلان . وتوفى بالقاهرة سنة ٥٩٦ هـ . (انظر وفيات الأعيان . والكامل فى التاريخ . ومعجم البلدان فى رسم : بيسان) .

وذاكَ أَنّ الداءَ لمّا أتى ... إليه فى جُملة خُدَّامه

أَجَلَّه أَنْ يَعْتَرى جسْمَه ... مَعْرِفةً منه بِإعْظامه

ورامَ تَوديعًا له فانْثَنَى ... يَرْغب فى تَقبيل أَقْدامه

فلم يكُن بُدٌّ مِن أسعافِهِ ... جَرْيًا على مَعهود إنْعامه

أَخبرنى الشهابُ أنه لما أُنشد هذه الأبياتَ قال له الفاضلُ : أبياتُك هذه يا شمسَ الدَّولة خيرٌ من العافية ، ما سمعتُ فى معناها أَحسنَ منها ، وأحسنُ ما فيها أنها من ربِّ سَيْف .

قال : ودَخل على الصَّفىّ[1] ابن شُكر / وزير العادل[2] ، وقد فَهِم [15a] عنه تَقصيرًا فى حقّه فأَنشده :

[متقارب]

أيا مَن مودَّتُه لم تَزَلْ ... إذا ما ارتقَى رُتبةً أو وَلِى

أُعيذك من غَفْلةٍ تَعْتَرِى ... جَلالَك عن خادم أو وَلِى

إذا لم تَزِدْنى على رُتْبتى ... فعُدْ بى إلى حالىَ الأَوَّل

فقال : بل لا أَقنع لك إلّا بالمَزيد ، ولا أَعتذر لك إلا بالفِعل .

وشِعْره مُدوَّنٌ ، ظَفِرتُ به عند شَخص لا يَسمح بإعارته ولا مُطالعته ، فحفظتُ منه هذه الأبيات ، وهى عُنوان عما تضمَّنه من البدائع والغرائب :

---

(١) انظر الحاشية (رقم ٢ ص ٢١) من هذا الكتاب .

(٢) انظر الحاشية (رقم ٢ ص ١٦) من هذا الكتاب .

[كامل]

شاقَ الحمامَ فباح بالأشجانِ عِقْدُ النَّدَى فى جِيدِ غُصْنِ البانِ

وتَأوُّدُ الغِيدِ النَّواعم شاقَنى فلهُ ولى نَوْحٌ على الأغْصان

لى بالحُدوج وبالغَوانِى صَبابةٌ وله بورْدِ الرَّوض[1] والرَّيحان

ولو أنَّنى واصلتُ من أحْببتُهُ يومًا لكان وكنتُ فى بُستان

وبُهْجتى خَنِثُ اللِّحاظ جُفُونُه نَشِطتْ لقَتلى نِشْطةَ الكَسْلان

---

(١) الحدوج : جمع حدج ، بالكسر ، وهو مركب من مراكب النساء، نحو الهودج والمحفة .

الترجمة الخامسة

[التلمسانى]

قاضى الجماعة الأديب المُتفنّن / أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن [15 b] مَروان التِّلِمسانىّ .

ذكره التاج ابنُ حَمّويه الدِّمشقى فى رحلته المغربيّة[١] وأَخبر أنه من المريّة[٢] أصلاً . وكان والدُه من الأجناد ، تَقدّم وساد ووَلى مدينةَ وهْران . وبها وُلد أبو عبد الله ، ونشأ بتلمسان[٣] مُجدًّا فى الفقه والأدب ، ومال لِعلم الظاهر ، وأَكثرَ من مُطالعة كتب أبن حَزْم[٤]

---

(١) هو أبو المظفر صدر الدين محمد بن عمر بن على بن حمويه الدمشقى الكاملى . كان مولده سنة ٥٧٢ هـ كما كانت وفاته سنة ٦٥٢ هـ .

وله مصنفات عدة ألفها للملك الكامل . وكانت له مشيخة الشيوخ بمصر . ورحل رحلة واسعة طاف فيها بفلسطين والمغرب ، واتصل بصاحب مراكش المنصور بن عبد المؤمن ، ومن كتبه « تقويم النديم وعقبى النعيم المقيم » . بدار الكتب المصرية منه نسخة خطية برقم (١٥٠١ أدب) وبآخرها ترجمة المؤلف ونبذة من تاريخه تشمل بعض رحلاته ومصنفاته .

(٢) المرية (Al meria) : مدينة بالأندلس محدثة ، أمر ببنائها عبد الرحمن الناصر سنة ٣٤٤ هـ . (انظر الروض المعطار . ومعجم البلدان . والمعجب) .

(٣) تلمسان ، بكسرتين وسكون الميم . ويقال فيها « تنمسان » بالنون عوض اللام : مدينتان متجاورتان ؛ إحداهما قديمة والأخرى حديثة . فالحديثة اختطها الملثمون . وكان اسمها تافرزت ، وكانت لسكنى الجند . واسم القديمة قادير ، وكانت لسكنى الرعية . قال ياقوت : فهى كالفسطاط والقاهرة من أرض مصر . (انظر معجم البلدان لياقوت) .

(٤) هو أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم . كان حافظاً عالماً =

فاشتهر بذلك ، وصادف انحرافَ المنصور[1] عن كُتب الفروع ومَيْله إلى مذهب أَهل الحديث ، فتقدّم عنده إلى أن ولّاه قَضاء قُضاته ، فأبان عن صَرامة وعِفّة ومُروءة .

وكان ممّن له مُشاركة فى صناعتى النَّظم والنثر .

وذَكره والدى فيمن لَقِيه من أهل العلم وأَطنب فى الثّناء عليه من جهة التعصّب والسَّعى الجميل فى حَقّ من اُعتمد عليه ، مع خُلق أَندى من النَّسيم ، وأدبٍ آنَقَ من الوجه الوَسيم . / قال : إلّا أَنّ حِفظه [16a] وعلمه بالأدب فوق شِعره .

وأحسنُ ما أورده منه قولُه فى المَنصور ، وله فيه أمداح كثيرة ، أُورد منها ما رأيتُ الاقتناعَ ببعضه كافٍ :

[طويل]

أسيِّدَنا يابْن الإمامَيْن أمرُكم ... مَنُوطٌ بأمر الله ما عنه مَعْدِلُ

نُصِرتُم لأنّ الحق آنَ ظُهورُه ... وناصِرُه فى الله ما كان يُخْذَل

= بعلوم الحديث ، شافعى المذهب ثم ظاهريًّا . وله من الكتب المحلى ، والفصل فى الملل والأهواء والنحل ، وغيرهما .

ولد بقرطبة سنة ٣٨٤ هـ . وتوفى ببادية لبلة منفيا سنة ٤٥٦ هـ . (انظر وفيات الأعيان ، وجذوة المقتبس) .

(١) هو أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ، المنصور بالله . بويع له بمراكش بعد وفاة أبيه سنة ٥٨٠ هـ . وتوفى ٥٩٥ هـ . بمدينة سلا . (انظر الكامل فى التاريخ ، ووفيات الأعيان ، والمعجب ، والحلل الموشية) .

أَزَلتُم على ما يَنفع الناس جهلَها وعلَّمتم فى الدِّين ما كان يُجْهل

وأَوردتُم السَّلسال مَن شَفَّه الظَّما أَوانَ جرَى ذاكَ الحديثُ المُسلسَل[1]

قَطعتم فُروعًا قد أَضرَّت بأَصلها ألا هكذا من كان بالعدل يَشْمل

ملأْتم بساطَ الأَرض خيراً وما بَقِى فأخبارُكم فيه تَسير وتُنْقَل[2]

أَقِمْ إن تَسِرْ نحو المَمالك راحلًا فسا كنُها شوقًا لعَدْلك يَرْحل

ومن نادر الحكايات أنه كان قد لَزِم أبا جعفر بن مَضاء[3] قاضى القضاة مدةً ، وكان يُثقلُ عليه بالطبع ويخف عليه بالتصنيع ، فسأله فى بعض الأوقات عن حاله ، فارتجل هذه الأبيات :

[مجتث]

يا من مضى وتَسمَّى ولم يَخُنْه زمانُه

سألتَنى كيف حالى وقد كَفاكَ عِيانُه

إنْ كان عندك خَيْرٌ يُرْجَى فهذا أَوانه

---

(١) المسلسل : المتصل الرجال .

(٢) يريد « ببساط الأرض » سهلها ، و « بما بقى » وعرها وحزنها . أى إن خيره طبق الوهاد والنجاد .

(٣) هو أبو جعفر وأبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن سعد بن حريث بن عاصم بن مضاء اللخمى قاضى الجماعة . وهو أحد من ختمت بهم المائة السادسة من أفراد العلماء .

ولى قضاء فاس وغيرها . وكان مولده بقرطبة سنة ٥١٣ هـ ومات بإشبيلية ٥٩٢ هـ . (انظر بغية الوعاة ، والمعجب) .

فقال : يكون الخيرُ إن شاء الله ولأسعينّ فيه جَهْدى . ثم جعل يَسْتنيبه ويرشّحه لما هو أهله . فقال له بعض أصدقائه : أراك تُقدِّم هذا الرجل وتُعينه على نفسك . فضحك ابنُ مضاء وقال : الرأى ما ظننتَه ، إنه غير رأيى ، هذا رجل لاحتْ لى فيه بوارقُ السعادة ولا بُدَّ أن يتقدَّم رضيتُ أم سخطت، والأولى أنْ أُظهر أنّ تقديمه بترشيحى وسَعْيي له ، فإن وَفَى اشتركنا فى حمد الناس ، وإن لم يَفِ أنفرد باللائمة .

ثم إن ابن مضاء مرض فى سفرة المنصور إلى إفريقيه سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، فاشتغل ابن مروان بالحُكم بين الناس ، فظهر منه من حُسن الخلق والسياسة ما اشتهر به اسمُه ونُسى معه ابن مَضاَء ، فما استقلّ ابنُ مضاء من مرضه إلا وقد حاك[1] فى قلب المَنصور أن [17a] يجعله قاضى الجماعة / فكان ذلك ، وصار ابن مضاء إذا رآه والناس مُقبلون عليه أنشد :

[طويل]

ومايَسْتوى الثَّوبان ثوبٌ به البِلَى ... وثوبٌ بأيدى البائعين جَديدُ

ولم يزل أبو عبد الله قاضياً للمنصور إلى أن كانت سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة ، فوقع بينه وبين أبى القاسم بن بَقِّى[2] كلامٌ أظهر فيه ابنُ مروان الاقتدارَ عليه ، فأنشده ابن بَقِّى :

---

(١) حاك القول فى القلب حيكاً : أخذ .

(٢) هو أبو القاسم أحمد بن محمد بن بقى بن مخلد، الفقيه المحدث . ولى القضاء بعد موت ابن أبى عبد الله ، ولم يزل قاضياً إلى أن توفى أمير المؤمنين أبى يوسف وسنة من أيام ابنه محمد . (انظر المعجب، ونفح الطيب) .

[سريع]

الدهرُ لا يَبقى على حالةٍ لكنه يُقبِل أو يُدْبِرُ
فإنْ تلقّاك بمكروهه فاصبر فإنّ الدهر لا يَصْبِر

واُتفق أن سُعى فى إثر ذلك باُبن مَروان ، ونُسب له تقصير فى صَدقاتٍ خَرجت على يده ، فعزَله المنصورُ وولّى على قضاء الجماعة اُبنَ بَقِيٍّ المذكور. فلقيه اُبنُ مروان فى إثر ذلك ، وكان مُفا كِهاً حسنَ الخلق طيِّبَ النفس ، فقال له : أفترى ؟ لقد أَقبل وأَدبر ونحن نَصبر كما صبرتَ ! فاُستحيا اُبنُ بَقِيٍّ فلم يُجاوبه بحرف .

/ ثم لمّا وَلِى الناصرُ[1] ردَّه إلى قضاء الجماعة ، فلم يزل عليه إلى أن [17 b] مات فى سنة إحدى وستمائة .

ومما شَنَّع عليه أعداؤه أنه نَزل بتِلِمْسان فى دار يهودىّ ، فاُحتفل فى إكرامه وأحضر له جميعَ ما قدر عليه ، فخلا به وذاكره فى دينه، ثم داعبه حتى أَحضر له من طاهورتهم . فيقال إنه قال : يا إسرائيلى ، دياركم نَظيفة، وطعامكم طيب، وشرابكم رائق ، ما أظنكم إلا على الحق .

قال والدى : ما تكاد تجد فقيهاً من طَلبة الغَرب إلّا وهو يحفظ هذه الحكاية ، وقد سارت بها الرُّكبان ، والله أعلم بالحقائق .

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن على . الناصر لدين الله من خلفاء الموحدين . بويع له بعهد أبيه إليه بعد وفاة أبيه سنة ٥٩٥ هـ . وفى أيامه كانت وقعة العقاب المشهورة . وكان مولده سنة ٥٧٦هـ كما كانت وفاته سنة ٦١٠ هـ. (انظر المعجب . دول الإسلام للذهبى ٢ : ٨٥) .

وأَنشدنى له ابنُه الكاتب القاضى أبو زكريّا شعرًا يَصف فيه دعوة صَنعها بعضُ أصدقائه واُحتفل فيها ، وكان هو المُتصرف بين أيديهم بنفسه ، فعَلِق بخاطرى منه قولُه :

[سريع]

يا حَبَّذا دعوتُك المُرتضَى — جميعُها من كُل فَضْلٍ عَمِيمْ

كأنّنا الأغصانُ سُكرًا بها — وأَنت فيما بيننا كالنَّسيم

[18a] / وقولُه، وهو فى غاية من الُحسن ، ولم أَسمع فى معناه مثلَه :

وجاءنا خُبْزٌ رأَينـــا به — فى هالة الَخيْر وُجوهَ النَّعِيم

وكان اُبنُه مثلَه فى حفظ الأَدب والتخصّص ، وولى قضاء المريّة والكتابة عن الأَمير أبى بَحر[1] ، اُبن مولانا المقدَّس ، إلا أنه كان نهايةً فى سوء الُخلق والبُخل ، رحمه الله وسامحه .

وهو شاعر تَقف على ترجمته فى سنة اُثنتين وخمسين وستمائة .

حضرتُ عنده فى القاهرة مع جماعة من الأُدباء ، فأَخرج لحمًا وخُبزة

---

(١) هو أبو بحر صفوان بن إدريس بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عيسى ابن إدريس التجيبى المرسى . روى عن ابن مضاء، وكان بينه وبين ابن بقى أبى القاسم مكاتبات .

وكان مولده سنة ٥٦١ هـ . وتوفى بمرسية سنة ٥٩٨هـ .

وله من الكتب : زاد المسافر ، وقد طبع أخيراً ؛ وكتاب : الرحلة ، وغيرهما . (انظر نفح الطيب) .

واحدة . ففَرغتْ فأَخرج أُخرى ، ثم فرغتْ فأَتى بأُخرى ، وقد تغيّر وجهه . فقلت له : يا أبا زكريا ، ما أَظنك إلا حافظاً لوُجوه النِّعم ، ما ترى أَن تستَذلَّها بالنظر . فخَجل واُعتذر اُعتذارًا باردًا ، ولم يَستدع أحدًا منّا بعد هذا .

الترجمة السادسة

[ابن جرج]

شيخ طلبة الحضر ، العالم الجليل ، الفيلسوف الشاعر النبيل ، أبو جعفر أحمد بن عَتيق بن جُرج الذَّهبي البَلنسيّ . أصلُه من بنى جُرج ، البيت المشهور بقُرطبة[١]، انتقلوا بالفتنة إلى بَلَنْسية. وكان فى آبائه من اشتغل بالتَّذهيب فجرى عليه ذلك الوصف ، وكُل من وقفتُ منه على ذِكْره ، فى كتاب أو مُشافهة ، عَظّمه غايةَ التعظيم ، وجعله أحقَّ أهل عصره بالتقديم . وأبو الوليد الشَّقُنْدى[٢] ، مِن بينهم ، شديد الغلوّ فيه ، وهو أعلمُ الناس به لكثرة ملازمته إيّاه . سمعتُه مرة يقول : إنَّ الكمالَ الإنسانىَّ إنْ جُمع لإنسان فإنه لم يَعْدُ ثلاثةً : أرسطو ، وابنَ سينا ، وأبا جعفر الذَّهبي . وذكره فى رسالة شُعراء الأندلس الذين افتَخر بمحاسن شعرهم على شُعراء برِّ العُدْوة ، ونَوّه فيها بقوله — وهو من المُرقِص الداخل فى كتاب « كنوز الأدب » — :

---

(١) وأصل هذه الأسرة من البيرة . ومنها أيضاً أبو جعفر عبد الله بن محمد ابن جرج الكاتب . المتوفى سنة ٥٧٥ هـ . (انظر المقتضب من تحفة القادم) .

(٢) هو أبو الوليد إسماعيل بن محمد . وشقندة ، المنسوب إليها (بفتح فضم فسكون) : قرية بعدوة نهر قرطبة مجاورة لها من جهة الجنوب .

قال ابن سعيد وهو ممن كان بينه وبين والدى صحبة . . . وانتفعت بمجالسته . وله رسالة فى تفضيل الأندلس يعارض بها أبا يحيى فى تفضيل بر العدوة . وولى قضاء بياسة ولورقة . مات بإشبيلية سنة ٦٢٩ هـ .

(انظر اختصار القدح . ونفح الطيب ٤ : ٢٠٨ — ٢١٠) .

[خفيف]

أيها الفاضل الذى قد هَدَانى ... نَحْوَ مَنْ قد حمدتُه باختيارى

شكَرَ اللهُ ما أتيتَ وجازا ... كَ ولازلتَ نجمَ هَدْىٍ لسارى [19a]

أىّ برق أفاد أى غَمَـام ... وصَباح أدَّى لضوء نَهار

وإذا ما غـدا النَّسيمُ دَليلِى ... لم يُحِلْنى إلّا على الأَزهار

وأنت إذا بحثتَ جهدكَ فيما قاله المَشارقةُ والمَغاربة فى فاضلٍ دلَّ على صُحبة فاضل، لم تجد مثلَ هذه الأبيات .

قال : ومن الأبيات السائرة المُفردة للتَّمثيل قولُه فى عالِمٍ انفصل عنه :

[خفيف]

ولـكَمْ مجلسٍ لديك انفصلْنا ... عنه مثلَ الصَّبا عن الأَزهارِ

وقولُه، وقد عاد أبا سعيد بن جامع[1] فى مَرضه :

[خفيف]

أنت عينُ الزَّمان لا تُنْكِرِ السُّقْ ... مَ فما ذاكَ مُنْكَرٌ فى العُيُونِ

(١) هو الوزير أبو سعيد عثمان بن عبد الله بن إبراهيم بن جامع . وزر لأبى عبد الله محمد بن يعقوب بعد أبى عبد الله محمد بن على الضرير . وكان إبراهيم جد أبى سعيد ، من أصحاب ابن تومرت ، صحبه من مراكش . وكان أصله من الأندلس، أباؤه من مدينة طليطلة . ونشأ إبراهيم بساحل مدينة شريش على البحر الأعظم بضيعة تسمى روطة ثم انتقل إلى بر العدوة فتعرف بابن تومرت.

واستمرت وزارة أبى سعيد هذا إلى أن توفى أمير المؤمنين أبو عبد الله، ووزر بعده لابنه أبى يعقوب حتى عزل فى سنة ٦١٧ هـ . (انظر المعجب) .

وممن كان يبالغ فى وصفه من جهة العلم والمودَّة ، وحُسن الأخلاق وكمال الأوصاف ، أبو عِمْران الطَّرْيانى(١) قال : كنت إذا صعدتُ إلى الْحضرة أَلزمُ خِدمة جماعة من أرباب دولتها ، فوردتُها مرةً ، وحَضر مَوسمٌ ، فغيّروا عاداتهم ، فحملنى ذلك على أن قلت :

[سريع]

[19b] غَيَّرْتمُ عاداتِكم عندنا فكُلُّنا من عِبْئه يَستريحْ
فغـــيّر الرحمنُ عاداتِه عندكمُ كى تُعْذَروا فى القَبيح

وبلغ ذلك أبا جعفر الذَّهبى ، فقام بجميع ما أحتاج إليه ، فقلت فيه :

[مجزوء الرجز]

أَبَيتَ إلّا كرمَا ذا ثَروة أو مُعْدِمَا
ترى الأيادى مَغْنما إذا رأوها مَغرَما
فزادك اللهُ علـــى كُلِّ الأُمور نِعَمَا

وصليتُ إلى جانبه صلاةَ العيد ، فلما التفتَ من السلام ورأى الناس يموجون فرحاً أَطرق ، ثم أنشدنى :

[سريع]

نُسَرُّ بالأعياد يا ويْحنا وكُلُّ عيدٍ قد توَلَّى بعَامْ
والعُمر دُرٌّ فى نِظامٍ وهلْ نَفْرح أن يُنْقَضَ دُرُّ النِّظام

(١) هو أبو عمران موسى بن على ، ينسب إلى طريانة (بفتح فسكون) : المنارة التى أمام إشبيلية على الجانب الغربى .
قال ابن سعيد : وبلغنى أنه مات سنة تسع وثلاثين وستّمائة . (انظر مختصر القدح . والمغرب) .

مافى البرايا عاقلٌ كُلُّهم يَرْدَى ولم يَعْمل حسابَ الفِطام
والحمدُ لله على ما قَضَى فهذه حِكْمته فى الأَنام

ورأيت ابنَ حَمُّويه قد ذكره فى « رحلته المغربية » وأخبر أنه كان حسنَ الأخلاق جَمَّ المعارف . وسايرتهُ يوماً بظاهر مَرّاكش ، [20a] فتذاكرنا معايبَ الدُّنيا وأنكادها ، وأنها لا تُوجد فيها راحة غير مَشُوبة بتَعب أو سُوء عاقبة . فقال : عالَم النَّقص لا تكون فيه الكمالات .

وذكر ابن عُمر[١] فى تاريخه أنه كان متفنّناً فى العلوم، مُحيطاً بكثير من الفلسفة ، وأنَّ وفاته كانت فى سنة إحدى وستمائة فى سَفْرته مع الناصر[٢] إلى إفريقية . وكان ممن طُلب عند محنة أبى الوليد[٣] بن رُشد، فى مدة المنصور من أهل الفلسفة، فلم يُوجد ، فبلغه أنه فى خدمة السيد أبى الحسَن علىّ بن أبى حفص بن عبد المؤمن[٤] بغَرناطة، فكتب له فى أن

---

(١) لعله يريد ابن حموية صدر الدين محمد بن عمر . وقد مر التعريف به فى الحاشية (رقم ١ ص ٢٩) .

(٢) هو محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ، الناصر لدين الله ، من خلفاء الموحدين . وقد مر التعريف به فى الحاشية (رقم ١ ص ٣٣) .

(٣) هو محمد بن أحمد بن محمد بن رشد الأندلسى أبو الوليد الفيلسوف . من أهل قرطبة . اتهمه خصومه بالزندقة والإلحاد فأوغروا عليه صدر المنصور ، فنفاه إلى مراكش وأحرق كتبه ، ثم رضى عنه وأذن له بالعودة ، فعاجلته منيته وتوفى بمراكش سنة ٥٩٥ هـ . ثم نقلت جثته إلى قرطبة .

(٤) سيترجم له المؤلف (ص ١٤٩) .

يَجمع له جمعاً ويُوقف بينهم حتى يَلعنوه . فلما وصله الكتاب وقفَ عليه أبا جعفر فى خَلوة . فقال أبو جعفر : ألا لعنة الله على الظالمين ! فضَحك السيد وقال : عجلتَ بالمكافأة يا أبا جعفر ، وبدأتنا بما أستحيينا أن نبدأك به ، وبالله لقد يشُق علىّ مقابلتُك بما أُنْفذ به الأمرَ ، لكن ليس [20 b] / من ذلك بُدّ ، وقد رأيت أن يكون على خَلوة . فجمع خواصّه ولعنوه بمكانه . فجعل يقول : ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّاب﴾ . وتلطَّف السيّدُ فى أمره والجواب عن مسألته .

ثم إنه بلغ بعد ذلك الغاية القُصوى بالحَضرة حتى قُدِّم على طلبة الحضر ، فصار من أخصّ الجلساء وأرفعهم منزلة عند المنصور ، ثم عند الناصر .

وفيما كتبه والدى من أخباره : أنه كان فى أول أمره مُشتغلاً بالعلم ببَلَنْسية ، إلى أن شُهر بها مكانُه ، وجلّ قَدره فى الإقراء والإفادة . فاُستدعاه المنصور إلى الحضرة فقال :

[مجزوء المديد]

كُنتُ فى رُكْنٍ من الأر ... ضِ على مِقدار فَهْمِ
مُفردًا فيــه مُخَلًّى ... فارغًا من كُل خَصْم
فدعَوْا بى ثم قالوا ... عَلِّمْ فى كُل عِلْمْ
عَرَّضُونى للبَـــلايا ... أَتلقّى كُلَّ سَهْـم

٤١

يالَقومى أَتْعبوا فى قَصْدهم رُوحى وجِسْمى

وقال : كان لى أخ أَمِيلُ إليه ، فأردتُ أن أُنبهه لحُضور مجلس أبى جعفر النَّهبى مع ما يستفيد منه . فقال لى أبو جعفر : لا تَتعب فى هذا الأخ الذى لك ، فوالله لا أَفلح أبدًا . فقلت : ولِمَ ؟ قال : لأنه ليست عليه طَلعة أديب ، ولا له التفاتُ أريب ؛ ولا عنده إصغاء مُسترشد ، ولا لديه تلطُّف مستخبر. قال : فقطعتُه عنه ، وتركته لشأنه. فما طلع فى إخوتى أقلّ فلاحًا منه .

الترجمة السابعة

[ابن الياسمين]

الجليس[1] المتفنّن الكاتب أبو محمد بن الياسمين عبد الله بن حجّاج الإشبيلى . نُسب إلى أُمه ، وكانت سوداء ، وكان هو أيضاً أسود . تخرّج بإشبيلية فى فُنون العلم . وكان أول تعلّقه بالفقه والتّوثيق ،[2] حتى صار من أعلام العارفين بالوثيقة ، ثم اشتغل بالنّظم والنثر وفنون [21 b] / الآداب، فصار من أعلام الأُدباء والكتّاب .

ومن حكاياته أنه جاء بإشبيلية إلى شَيخ طبيب،فشكا له تلهّب مَعدته، وأنه لا يُشبعه شىء . فقال ، وقد لَمح عليه بوارقَ السعادة : لا بُدَّ لك من أن تَشتكى لى بسُوء هَضم مَعدتك ، نَعم وبثانية ، نَعم وبثالثة . فمضت الأيام وطلع إلى مَرّاكش، وبلغَ المبلغَ العظيم من مُجالسة المنصور ومُسايرته له إذا ركَب فى أسفاره ، لافتنانه بحديثه وما يجد عنده ممَّا لا يجده عند غيره . فاتفق أن طلع ذلك الطبيبُ إلى مَرّاكش فاجتمع به، فقال له : يا حكيم ، صدقتَ فيما أنذرتنى به من سُوء الهضم مما تراه . فدلّه على ما يصنع . ثم مضت الأيام فشكا له بالنِّقْرِس وقال : أظن هذه الثانية ؟ قال : نعم . ثم أقام مدة ، ووقع اجتماعه به ، فقال له : يا حكيم ، صدقت فى أثنتين فأين الثالثة ؟ فقال : يا فقيه، بَلَغَتْنى على ألسن الناس،

(١) وانظر : زاد المسافر لصفوان بن إدريس .

(٢) التوثيق : تهيئة الوثائق وإعدادها .

ولو كانت علّة لشكوتَ بها . فضحك أبو محمد . وكان كثير الإجمال والمُطايبة والمَرح ، وأحسن للطبيب . وكان قبل ذلك لم يُفَض عليه [22 a] فى دنياه بشىء . وإنما أشار الطبيب إلى الخَلة التى اشتهرت عن ابن الياسمين . والله أعلم بالسرائر (١) .

وذكر ابن عُمر فى تاريخه أن وفاته كانت فى سنة إحدى وستمائة . ولم يُوقف له على حقيقة . وقد وُجد مَذْبوحاً فى غُرفة على باب داره .

ومما تلقيتُه من جماعة من طلبة مَرَّاكش أنه وُجد فى تلك الغرفة على وجهه ووَتدٍ فى دُبره .

وكذلك وُجدالفَتح (٢) صاحب القلائد ، فى تلك الجهة بعينها ، ما بين دار ابن الياسمين والفُندق الذى ذُبح فيه ابن الياسمين، إلا مسافة يسيرة .

وحكى أبو عِمران الطَّرْيانى قال : كنت فى اليوم الذى أصبح فيه ابن الياسمين مذبوحاً عند الكاتب أبى الحسن بن عَيَّاش (٣) ، فبينا أنا

(١) سيشير المؤلف إلى هذا فى الأسطر الآتية .

(٢) هو أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان بن عبد الله القيسى الإشبيلى . توفى قتيلاً سنة خمس وثلاثين وخمسمائة بمدينة مراكش فى الفندق . وله : قلائدالعقيان ،ومطمح الأنفس(انظر المطرب. ووفيات الأعيان) .

(٣) هو أبو الحسن على بن عياش بن عبد الله بن عياش . كان من كتاب أبىعبد الله محمد بن أبى يوسف يعقوب بن يوسف بنعبد المؤمن بن على. قال عبد الواحد المراكشى فى المعجب : « ثم اتصلت بى وفاة هذين الكاتبين — يعنى أبا الحسن هذا وأبا عبد الله بن عياش — وأنا بالديار المصرية فى أشهر سنة ٦١٩ هـ » . (انظر المعجب ص ٣١١ ، ٣٢٥) .

ألاعبه بالشّطرنج إذ دخلتْ إليه أَمةٌ له وألقت إليه براءةً عرّفته أن أمرأة دفعتها إليها، ورَغبت منها أن تُوصلها إلى سيّدها .

فقال : هذا وقتُه ! ولم يلتفت إليها . قال : فقلت له : ولعلّ فيها مالاَ يَجب تأخيرُه. قال : ولعلّ . ثم أخذها وقرأها، فإذا بوجهه قد تغيّر، ثم ضَحك ورَمى بها إلىّ وقال:انظرُ هذا الذى لايجب تأخيرُه . فقرأتُها، فإذا فيها :

[كامل]

هـذا ابنُ حَجّاج تَفاقم أمرُه ... وجَرى وجَرّ لحَدّغايته[1] الرَّسَنْ

حتى غـدا مُلْقًى ذَبيحًا حاكيًا ... للناس رِقْدتَه إذا هَجر الوَسَن

فَلْيحزُن الـكُتّابَ ما قد غاله ... وأَخُصّ بينهم الفقيدَ أبا الْحسن

فقلت : ومن تُرى قائل هذه الأبيات لعنه الله ؟ قال : ياسُبحان الله! وهل صاحبها غير الـكورائى[2]؟ الذى طَبعه الله على ألّا يُضَيِّع فرصة من فُرص الأَذاة .

قال أبو عمران : ثم اُشتهر بعد ذلك قولُ الـكورائى فى تلك القضية معرِّضاً بابن عيَّاش :

[كامل]

فَلْيَحْزُن الـكُتّابَ ما قد غالَه ... وأَخُصّ من بين الجميع فلانَا

---

(١) الرسن : الحبل . يصفه باسترساله فى غيه، شأن الفرس يطلق له الحبل.

(٢) هو أبو العباس أحمد بن عبد السلام الكورائى . وستأتى ترجمته بعد فى هذا الكتاب (ص ٨٨) .

فحصل التحقيق بأنه قائل ما تقدَّم .

قال أبو عمران : فلم يكن ابنُ الياسمين، على ما كان له من مَنصب العلم / والتقدُّم عند السلطان ، يستتر بحاله ، بل يتمازح فيه ولا يُضيِّع [23 a] بادرةً تقع من أجله . وله فى ذلك أشعار كثيرة ، منها قولُه ، وقد عَذله بعضُ أصحابه فى تقريب أمرئٍ كان كثيرَ الأختصاص به ، وقال له : هلاّ اخترتَ لخِدْمتك ، والقُرب من مُناولتك ومُشافهتك ، أبيضَ اللون :

[طويل]

يَعيبون حُبِّى للسَّواد جَهالةً ... وما عَلِموا ما فيه لى مِن مآرِبِ
أُهينَ لقَصْدى رَبَّه وهو خادم ... إذا ما عَلا فَوْقى بمِجْداف قارِب
ويُلْقَى ضَحوكَ السِّنِّ لله دَرُّه ... حَمُولًا لما حَمَّلتُه غيرَ لاغِب
وفيه خِصال جَمَّةٌ غيرُ هذه ... أَحقُّ الورى طُرًّا بخِدْمة كاتِب
فيامَعْشرَ الكُتَّاب أُوصيكمُ به ... وصيَّةَ من يُعْنَى بحاجة صاحِب

قال : وربما كان يصرّح فى بعض خَلَواته لمن يأخذ معه فى ذلك الشأن ، إذا دارت كأس المُدام ، وارتفع حجاب الحياء عن الكلام ، فيقول : ينبغى لأرباب هذه الصناعة ألّا يَعْدلوا عن الأمرد ، فإنه أطول أيرًا، وأكثر سيرًا .

/ ومن أشعاره المُتعارَفة بهذا الباب قولُه فى صبىّ مَليح جاء يقرأ [23 b] عليه ، بعد ما حام على قُربه زمانًا ، فلم يقدر على ذلك :

[مخلع البسيط]

لله ذاكَ المَلِيحُ لمّا أتى بأَسْفاره إلينا
كم قد غدا حائماً إلى أنْ أَوقعه البَخْتُ فى يَدَيْنا
فظنَّ جهلًا أَنَّا عليه وما دَرَى أنه علينا

قال : وبينما هو فى جامع إشبيلية إذ مرَّ به صبيٌّ فى نهاية الحُسن . فأَنشده مُسمِعاً له :

[مخلع البسيط]

ما ضَرَّ مَن سار وما سَلَّما لو أَنه من لحَظْه سَلَّما

فأظهر النِّفارَ من ذلك، فقال : لا تَخفْ ، إنك أنت الأعلى . ففَطن لمُراده . فقال : لستُ ممن يَركب بأُجرة ولا سُخرة . فلم يُحِر جواباً . وبقى مُتعجباً من فِطنته ومن مُخاطبته، وبَحث عنه فإذا هو من بنى زُهْر .

ولما اشتهر قولُ أبى العبّاس الكورائى فيه :

[بسيط]

إسْتُ الحُبَارَى ورأْسُ النَّسر بينهما لونُ الغُراب وأَنفاسٌ من الجُعَلِ
[24 a] خُذْها إليك بحُكم الوَزْن أَربعةً كالنّعت والعَطْف والتّوكيد والبَدَل

حَمله ذلك على أن قال :

[بسيط]

وله موشّحات يُغنَّى بها، وأمداح فى المنصور والناصر . وأَمثلُ ما وقع لِيَدى من ذلك قولُه من قصيدة منصوريّة يذكر فيها قَطْع المنصور الاُشتغال بكتب الفُروع والاُقتصار على ما ثَبت من الأحاديث النبوية :

[متقارب]

أَسيِّدَنا قد وردتُمْ بنا مَوارِدَ كنّا عليها نَحُومْ
نَبذتُم مقالةَ هذا وذا فزال المِراءِ وقَلَّ الخُصوم
وأَثبتُّمُ قولَ مَن لَفْظُه هو الشَّرْع والحقُّ منه يقوم
فلا زِلتمُ لكمال الهُدَى وإحْياءِ دارِسِ دَرْسِ العُلُوم

وقوله من قصيدة ناصريّة : [وافر]

عجبتُ لمن يراك وبعد هذا يُحاول أن يرى مَلِكاً سِوَاكا
/ وقد جَمع الإلٰهُ لديك ماقَدْ تفرَّق فى البريَّة من حُلَاكا [24b]
وما أَحدٌ يؤُمّ ذَراكَ يومًا فيختار الترحُّلَ عن ذَرَاكا
فسبحان الذى أَعطاكَ مُلْكاً على مقدار ما أَعْلَى عُلَاكا

وحضرتُ(١) يومًا بحضرة تُونس عند الوزير أبى العَلاء(٢) فنظر

(١) ضمير المتكلم هنا يرجع إلى ابن سعيد مؤلف هذا الكتاب . وكانت بينه وبين أبى العلاء صلة . وانظر الحاشية الآتية .

(٢) هو أبو العلاء إدريس بن على بن أبى العلاء بن جامع . كان يكتب له ابن سعيد ، ثم مات فرثاه بقصيدته التى مطلعها :

بكت لك حتى الهاطلات السواكب وشقت جيوبا فيك حتى السحائب

(انظر نفح الطيب ٣ : ٤٤ ، ٤٧) .

زَهر نارنج تفتّح فى أَشجاره بين يديه ، فقال : هل يحضُرك فيه شىء من محفوظاتك على أن يكون مما يَهُزّ سامعَه ؟ فقلت : أمَّا على هذا الشرط فلا . فقال : قُل أنت فيه. فقلت : اَمتثالا لأمركم لا على شَرطكم . ثم أنشدتُه :

بَدَا لك النَّارَنْجُ وهْو كأنما ... يُريك على الأجْياد دُرًّا مُنَضَّدَا

وإن خِلْتَه بين الزَّبرْجد فِضةً ... فعمَّا قريبٍ سوف تلقاه عَسْجَدَا

على مثله حَثَّ النديمُ شَمُولَه ... ونظَّم منْ شَمْل المُنَى ما تبدَّدا

فأَطْنب فى الاستحسان، وأقام السرور بواحد ثم ثان .

[25 a] / وقال : خرج ابنُ الياسمين إلى بعض بِحَار[1] مَرّاكش فنظر إلى مثل هذا المنظر ، وأُستحثّ على وصفه مَن كان معه من أَهل الشعر والأدب . فقال كلُّ واحد منهم على ما أعطاه فكرُه ووقتُه . فلم يُحفظ من كل ذلك إلَّا قول اُبن الياسمين : [مجتث]

جاءالربيعُ وهذِى ... أُولَى البشائر منهُ

كأنَّما هو ثَغر ... قد جاء يَضحك عَنه

زَهرٌ لنارنجِ دَوْحٍ ... اُنظرُ إليه وصُنْه

أليس حيَّاك عَرْفُ الّـ ... ـذى جَفا مَن لَدُنه

وهذا مما أوردتُه فى كتاب «الكُنوز»، إذ إهمال مثله منه لا يجوز. وها أنا أختم ترجمته ، بما تَعرف به فى الشعر قيمتَه .

(١) البحار : جمع بحرة ، بالفتح ، وهى الروضة .

نقلت من مُعجم أبى الوليد الشَّقُنْدِىّ أنّ أبا الحجّاج بن نَمرىّ،(١) عالم فاس، لمّا استُحسنت بالحضرة مُذاكرته، أُحسن إليه وخُلع عليه، وحَضر مع ابن الياسمين فاستقبح صورته واستحسن كلامه، فقال فيه :

[مجزوء المديد]

[25 b] /أيُّها اللّابسُ لَوْنَ الـ ... ـلَيْل ثوبًا حين أظلمْ

والذى يُضمر داءً ... منه يَوْمًا ما تألَّم

أنت من أقبح خَلْق الـ ... ـلّه ما لم تتكلَّم

بشُذور باهراتٍ ... ساحراتٍ لو تُجَسَّم

أصبحتْ فى كُل جِيدٍ ... حَسَنٍ عِقدًا مُنظَّم

فلما بلغ ابن الياسمين ذلك قال :

[مجزوء المديد]

أيها الفاسِى أتَى ريـ ... ـحُك قَبل النَّجْو يَفْغم

فى قَريضٍ حَسن الصُّو ... رة بالهَجْو مُجذَّم

فَقَبِلْناهُ وقد جا ... ءلنا بالمَدْح مُعْلَم

(١) هو أبو الحجاج يوسف بن عبد الصمد بن يوسف بن على بن عبد الرحمن بن محمد بن نمرى. أخذ عن القاضى أبى جعفر بن مضاء. كان له صيت بالمغرب وبمراكش وبإشبيلية، إذ كان إقراؤه بها فى دخوله الأندلس. ثم عاد إلى بلده عام ثلاثة عشر، وقعد للإقراء فى شرقى جامع القرويين إلى أن توفى فى الثانى من شهر رجب سنة ٦١٤ هـ. وكان مولده سنة ٥٥٤ هـ (عن جذوة الاقتباس ٣٤٥) .

ثم قُلنــا : بمزاحٍ منك قَوْل ليس يُعْدَم
إنمــا الشأنُ فقيــهٌ عالمٌ ليس يُعــلَّم
لا تُراه الدهرَ إلّا بغَريم الـكأس مُغْرم
يرفُض النّفْل مع الفَرْ ضِ أوان الزِّير[1] والْبَمّ
وإذا صــلَّى رياءً كان فيها مثلَ أَبْـكم
فى ثيــابٍ كربيعٍ قد سَرى فيها المُحرَّم
/ذا جوابى وهو ظُلْمٌ لك والبادئُ أَظْـلم [26 a]

قال الشَّقُنْدِىّ : هذان الشِّعران بمنزلة الشِّعْرَيَيْن ، وكلاهما عَيْن فى مقابلة عَيْن .

وقد أوردتُهما فى كتاب « كنوز المعانى » ، لأنهما مما ظَفرتُ به من الأمانى .

---

(١) الزير : من الأوتار الدقاق . والبم : الوتر الغليظ .

الترجمة الثامنة

[ابن مسعود]

الفقيه المدرس الشاعر الظريف أبو العبَّاس أحمد بن مَسْعود [بن محمد][1] الخَزْرجيّ القُرطبيّ .

جليل المقدار ، جائل فى الأقطار ؛ رَحل من بلده قُرطبة فدوَّخ أقطار المغرب والمشرق ، إلى أن استقر بمدينة دُنَيْسِر[2] فطلع بها كالمصباح المُشرق، واُعتنى به ملوك ماردين وُدنَيْسر بنو أُرْتُق ؛ وجعلوه مدرساً فى أَجلّ مدرسة لهم هنالك . وقد ذكروا أنه كان فى فنون العلوم بمنزلةٍ كذلك ، وكان جُلّ علومه الأصول والفقه الشافعى .

وقفت على ترجمته فى تاريخ دُنَيْسِر[3] لعمر بن الخضرِ التُّركى / [26 b] وفى تاريخ حلب لابن العديم ، وفى معجم ابن الشَّعار[4] . وكلهمْ أطنب فى الثناء عليه ، وترجم عمَّا لديه .

وفى أثناء تلك التواريخ أنه مات بدُنيسر فى سنة إحدى وستمائة .

ولما مررت بمدينتى دُنيسِر وماردين فى الرِّحلة البغدادية وجدت أُدباءها

---

(١) تكملة من نفح الطيب (٣ : ٣٧) .

(٢) انظر الحاشية (رقم ٢ص١٠) من هذا الكتاب .

(٣) ذكره حاجى خليفة وقال : « تاريخ دينسر لعمر بن اللمش » .

(٤) ابن الشعار ، هو أبو البركات مبارك بن أبى بكر بن الشعار الموصلى المتوفى سنة ٦٥٤ هـ . ومعجمه هذا هو ذيل على معجم الشعراء للمرزبانى أبى عبيد الله محمد بن عمران ابن موسى . وسماه « تحفة الوزراء المذيل على معجم الشعراء » . وقد فرغ من تأليفه سنة ٦٣١ هـ . (انظر كشف الظنون) .

يرتاحون إلى أخباره، ويَهيمون بحفظ ماوقع إليهم من أشعاره، فأَضفتُ ما استفدتُ منهم إلى ما وقعت عليه فى التواريخ المتقدِّمة الذِّكر، ولخصّت من الجميع ما اخترته لهذا المكان.

أخبروا أنه كان مع جلالة قَدره وتصدّره للتدريس من أَولع الناس بحضُور السَّماع، وأكثرهم قولًا فى الغراميَّات التى لاتخلو من الانطباع. وقد أوردتُ له ممَّا وقع ليــدى من ذلك ما يدُلّك على رقّة حاشيته، وحلاوة مَنطقه وتمكن قافيته، كقوله:

[مجزوء الخفيف]

ثار شوقى إلى الحَمى وهوَى الخُرَّد الدُّمَى
[27a] /وتذكُّرى ما خَلا مِنْ نَعيمٍ تَصرَّما
طِيب عَيْش فقَدْتُ مَعْـــناه إلَّا تَوهُّما
فَهفتْ مُهجتى جَوًى وَبكتْ مُقْلتى دَمَا
آهِ من حُمرة الخدو د ومن حُوَّةِ(١) اللَّمَى
وقِوَامٍ تخـــالُه سَمْهريًّا مُقوَّمَا
ناعمٍ لم أَزلْ به فى حَيـــاتى مُنَعَّما
وعِـــذارٍ كأنمـــا مَدَّ فى الخدِّ أرْقَما
أيُّهـــا المُبتَلَى به عِشْ كئيباً مُتيَّما
والذى جاء لاحياً فيه صار مُغْرَما

---

(١) الحوة: سواد إلى خضرة. واللمى: سمرة الشفة.

قُل له دَعْ سَلِيمَهُ وانْجُ عنــه مُسلَّما(١)

وقوله : [خفيف]

مِلْتَ عنّى لِمَا حكاه العَذولُ أىُّ غُصن مع الصَّبا لا يَميلُ

كُلَّ حين تُصغى لما قال هلَّا بعضَ حين تُصغى إلى ما أقول

هو حظِّى أموتُ وَجْدًا وشوقًا وحَبيبى بِبُغْضى مَشْغول

أنا عبدٌ وكُلُّ ما شئتَ تُعْطَى فالتَّجنّى والعتْبُ لِمْ ذا يَطُول

[27 b] / رُضْتَ فيه نفساً عزيزاً عليها ذُلُّها والمُحِبُّ عانٍ ذَليل

ويقول النَّصيحُ أَرْسِلْ إليه بخُضوع لعلّ حالاً تَحُول

أنا أرسلتُ للحَبيب ولـكنْ ليتَ شِعرى بما يعود الرَّسول

وقوله : [سريع]

الحمــــدُ لله على ساعةٍ عاينتَ فيها البدرَ فى سَعْدِهِ

مُبــارَكَ الطَّلعة مَيْمونَها تَقرأ آى النُّضْج فى خَدِّه

قَدَّمنى من أُفْقِه بعـــد ما قاسيتُ ما قاسيتُ فى بُعْدِه

لم يَجهل الحُبَّ ولا عابَه فجـاد بالوَصْل على عَبْده

وعاهدتْ أَجفانُه صُحْبتى وكُلُّنا باقٍ على عَهْده

أَسرُّ أيامِىَ يومٌ أُرى مُرتقياً فيه إلى وَعْـده

(١) سليمه ، أى المعضوض بحبه .

وعَهْدِي بالجَلَال بن الصَّفار الدُّنَيْسِري[١] يرتاح إذا أنشد قوله :

[وافر]

وفي الوَجَنات ما في الرَّوْض لكنْ ... لرائق زَهْرِها معنًى عَجِيبُ

وأعجبُ ما التَّعجُّبُ منه أنِّي ... أرى البُستانَ يَحمله قَضيب

وأنشدني قوله :

[بسيط]

[28 a] / لامُواعلى صَبْوتي والشَّيبُ مُبْتسمٌ ... كالزَّهر يُبدي أبتهاجاً في خَمائِلِهِ

فقلتُ والوجدُ يَطويني ويَنْشُرني ... أَواخرُ اليوم أحلى من أوائله

لم أترك الأُنسَ حيناً من أَحاينه ... فكيف أَغفُل عنه في أَصائله

فلم أُبْدِ له ما يَعهده من الأرتياح إذا أغرب عليَّ بمعنى . فسأَل عن سبب ذلك . فقلت له : لأني قلت ، ولم أُسمعه :

[وافر]

وقائلةٍ أراك على التَّصابي ... وغُصن العُمْر دَبَّ به الذُّبولُ

وهذا الشيبُ أنجُمه أنارت ... وطالَعها لصاحبها أُفول

فقلتُ لها ودمعُ العَيْن منِّي ... على تلك النُّجوم له مَسِيل

أَصِيلُ العُمر أتركه ضَيَاعاً ... إذ الأَوقات أطيبُها الأصيل

---

(١) هو جلال الدين الماردينى على بن يوسف بن شيبان ، المعروف بابن الصفار . ولد بماردين سنة ٥٧٥ ﻫ . ومات مقتولاً ، قتله التتار لما دخلوا ماردين سنة ٦٥٨ ﻫ . خدم بكتابة الإنشاء لأرتق صاحب ماردين . وكان شاعراً مجيداً . وصنف كتاباً يحتوى على آداب كثيرة سماه كتاب « أنس الملوك » . (انظر المنهل الصافى . وفوات الوفيات . والنجوم الزاهرة) .

فمدَّ يده إلى الدواة وكتبها .

وأنشد له الصاحبُ كمال الدين بنُ العديم قصيدةً ، منها فى الغَزل :

[كامل]

وَقَع المَلامُ مواقعَ الأشـواقِ فأصاب فيك مَقاتلَ العُشَّاقِ

ومنها فى مَدح ابن أُرْتُق صاحب ماردين :

/ما جاد يوماً أن يُقال هو الجوا دُ ولا توقَّف خَشْيةَ الإملاقِ [39 b]

لكنَّه يُعطِي ويَمنع عالماً بمواقع الإمْسـاك والإطلاق

وأنشد له ابنُ الشعَّار فى مُعجمه :

[كامل]

ياظَبْيَ سِنْجار(١) أمَا تَرْثى لمن قدصار مِن أجلك فى كَفِّ الأجَلْ

قد كان مَشْغولاً بدارس عِلْمه فاليومَ لا عِلْمٌ بَقِى ولا عَمَل

ومن أبياته المفردة التى يُتمثل بها :

[طويل]

وما عَجَبى إلا لذى الجَهْل إنه يُؤَمِّل فى الأعداء رأىَ الأصادِقِ

---

(١) سنجار : مدينة من نواحى الجزيرة بينها وبين الموصل ثلاثة أيام .

تراجم سـنة اثنتين وستمائة

ثلاث :

١ — من الجزيرة الموصلية : الفيلسوف المُتفنِّن الشاعر الموفّق التَّلْعَفَرِيّ .

٢ — ومن مصر : الشاعر الأديب المصّنف راجى بن عطاء الله .

٣ — ومن الأندلس : الأستاذ النحوى الأديب الظريف أبوالحسن هُذيل الإشبيلى .

الترجمة الأولى

[التلعفرى]

[29a] الفيلسوف / المتفنّن الشاعر ، المُوفّق التَّلْعفرى مُظفَّر بن محمد. من تَلَعْفَر[١] من حُصون سِنْجار . وكان الفَضل التِّيفاشى[٢] يَذكر لى هذا الرجلَ ويزعُم أنه استفاد من تصانيفه فى ضُروب الفلسفة ، ويُعتنى بما وقع له من أخبـاره وأشعاره أيامَ صُحبته رؤساء بنى ندا، أعيان الجزيرة العُمريّة[٣] .

ثم لما صِرْتُ إلى سِنْجار ومررت بتَلَعْفَر وحللتُ بالموصل وجدتُ ذكره هنالك نابهاً ، وأَلْفيت كلَّ مَن يذكره من أهل بلاده بأُنتسابه تائهاً . وقد لخّصت ما تلقيتُه من ذلك :

رحل فى أوّل أمره من بلده إلى الموصل وبغداد ، وقرأ فيها مُدة ، ثم عاد إلى تَلَعْفَر واستقرّ بسِنْجار عند أصحابها بنى مَوْدود ، وحَلّ

(١) هى تل أعفر — قال ياقوت : هكذا تقول عامة الناس ، وأما خواصهم فيقولون: تل يعفر . وقيل: إنما أصله :التل الأعفر —: قلعة وربض بين سنجار والموصل فى وسط واد فيه نهر جار . (انظر معجم البلدان) .

(٢) هو أحمد بن يوسف . وتيفاش ، التى ينسب إليها : مدينة أزلية بإفريقية . وتسمى بتيفاش الظالمة . ذات عيون ومزارع ، وهى فى سفح جبل . (انظر معجم البلدان) . توفى سنة ٦٥١هـ . وله كتاب أزهار الأفكار فى جواهر الأحجار .

(٣) يريد جزيزة ابن عمر ، وهى بلدة فوق الموصل بينهما ثلاثة أيام ، يحيط بها دجلة إلا من ناحية واحدة شبه الهلال . (انظر معجم البلدان) .

[29 b] منهم محل مرِّ الخمر فى العُنقود ، واُختص من بينهم / بقُطب الدين ، [1] وتصدّر لإقراء النَّحو والحكمة وضُروب الآداب . وكان معظم عُلومه الفلسفة ، واُشتهر بالتَّنجيم وقولِ الشعر والأدب .

فمن المُتداول أَنه وَضع لقُطب الدين فى بعض السنين تَقْويمًا وكتب عليه من شعره :

[متقارب]

تَضمَّن حُسبانَ مَجرى النُّجومِ ... وباح لديك بسِرِّ الفَلَكْ
فما كان شرًّا فللحاسدينَ ... وما كان خيرًا وبُشْرى فَلَكْ

وله فى قُطب الدّين وغيره من مُلوك بيته أمداحٌ جليلة ، منها قولهُ الذى يُرتاح إليه ، وتُعتمد الخَناصر عليه :

[بسيط]

غُرٌّ بهَاليلُ ساسُوا الدّهرَ واُقتدرُوا ... عليه من حيثُ ظِلُّ الْعَدْل مَمْدودُ
ماجَ الوَرَى مَعهم فى نِعمةٍ رَحُبتْ ... أَفياؤها وسَقى أفنانَهـــا الجُود
فبعضُهم رائع فى حالِ غَفْلته ... وبعضُهم بين ذاك الدَّوْح غِرِّيد
لا يَظهر العيدُ فى أقطارهم أبدًا ... إذ كُل أيامهم من حُسنها عيد
المَدْحُ عندهُمُ قُرْبَى وقَصْدُهُم ... يدٌ لديهم وأُفْق الجُود مَقْصود

---

(١) هو قطب الدين مودود بن زنكى بن آق سنقر صاحب الموصل ، وأخو السلطان الملك العادل نور الدين محمود . كانت وفاته سنة ٥٦٥ هـ . (انظر النجوم الزاهرة ٥ : ٣٨٣) .

/ ما أَحْسَنوا أبدًا بَدْءًا إلى أَحد   إلاّ وقالت لهم أَحسابُهم عُودُوا [30a]
وقُطْبهم قُطْبهم فى كل مَكْرُمةٍ   على عُلَاه أُستدار العِتْرةُ الصِّيد

ثم اختلّت أحوالُه بسِنْجار، فرَحل فى نهاية من الإسراع والهرب إلى الملك الأشرف[1] بحرّان،[2] فعندما أُجتمع به، قال له: ما أَخرجك عن سِنْجار؟ فقال: صاحبُها الذى جار. قال: فما هذا السَّوْق؟ قال: على قدر المحبة والشَّوق.

وقال فى تغيُّر صاحب سِنجار عليه، مالا يُستغنى فى هذا الباب عنه، ولا يُتمثّل فى معناه بأحسن منه:

---

(١) الأشرف، هو موسى الأشرف بن محمد العادل بن أيوب. كان أول ما ملك مدينة الرها، ثم أضيفت إليه حران. ثم ملك نصيبين سنة ٦٠٦ ﻫ. وأخذ سنجار والخابور سنة ٦٠٧. وكانت وفاته بدمشق سنة ٦٣٥ ﻫ. (انظر وفيات الأعيان).

ونحب أن نشير إلى أن هناك من الملوك من يسمى الأشرف، وهو الأشرف موسى شاه أرمن بن العادل محمود بن عماد الدين زنكى، ابن أخى قطب الدين مودود، وأنه مع كل من الأشرفين عاش شاعران ينسب كل منهما إلى تلعفر، أحدهما رجلنا المترجم له هنا، والذى كانت وفاته سنة ٦٠٢، كما ذكر المؤلف. والثانى أبو المكارم شهاب الدين محمد بن يوسف بن مسعود بن بركة الشيبانى التلعفرى أيضاً. ولد بالموصل سنة ٥٩٣ ﻫ. وصحب الأشرف موسى شاه أرمن. وكانت وفاته سنة ٦٧٥ ﻫ. (انظر النجوم الزاهرة. وفوات الوفيات).

(٢) حران: قصبة ديار مضر، بينها وبين الرها يوم وبين الرقة يومان. وهى على طريق الموصل والشام والروم. لابن النبيه الشاعر المصرى فيها شعر قاله للأشرف بن العادل بن أيوب، وقد مرا بها فى يوم شديد الحرارة. (انظر معجم البلدان).

[بسيط]

أيا لِمُعزّ صُحبةَ السلطان إنّ لها صَفوًا يَرُوق ولكنْ غِبّه كَدَرُ
مُمَاثِلِى لا أَزال الدّهْرَ ذا حَذَرٍ منه وليس متى ما شاء يَقْتدر
فكيف مَن ينقُد الأجيالَ قاطبةً مُستصغرًا وإذا يَجْفو جَفا البَشر
وكلما شاء حُكْماً فيك أَنفذه متى يشاء ومنه ليس تَنْتَصر
إنّ الملوك متى تَسْتَقْرِ نارَهمُ يَحْرِقْك قبل ٱبتغاءٍ للقِرَى الشَّرَر

وحَضر يوماً فى بُستان عند الملك الأشرف، فخدمه مَملوك له جَميل الصورة، فقال له الملك: يا مُوفّق، هل تُوفَّق / لشىء من النَّظم فى [30 b] هذا الذى جَمع لك بين الحُسن والإحسان؟ فقال: يا سلطان، ما أَضيعَ هُبوب النسيم على الروض الهَشيم، ثم أَفكر ساعةً وقال:

[وافر]

أقول له وقد أَبصرتُ مَرْأًى يُحاكِى غُرَّةَ القَمر المُنِيرِ
وأخلاقاً كما مُزِجت شَمُولٌ تُدارُ عليك بالعَذْب النَّمير
ولى حالٌ يُنافرها التَّصابى وقد حالت بإلْمام النَّذير
لقد أَبديتَ لى حُسناً وحُسْنى ولكن جِئْتَ فى الزَّمن الأَخير

فقال: والله لقد جاوزت حدَّ الإحسان! فلله دَرُّك! وبالله لا كتبتُه إلا بيدى. وٱستدعى الدواة وكتبها فى دفتر ٱختياراته.

وقدم على سِنْجار رجلٌ كثيرُ الدَّعاوى والتَّثقيل يُعرف بٱبن الجِغَانىّ[١]

---

(١) نسبه إلى «جغانة» و «جغانة» آلة موسيقية ذات ثلاثة أوتار، ذكرها دوزى فى تكملة المعجمات. (وانظر ابن خلكان ٧ : ٣٧ طبعة Wustenfeld).

القُطْرَبلي[١]، ويكتب عن نفسه: عليّ بن طاهر العَلوىّ. وكان أبوه، على زَعمهم، يضرب الجِغانة، وهى من آلات الطَّرب. ثم نشأ هـذا الشخص فتعلَّق بالأدباء والأعيان، وأَخذ من كلامهم واُصطلاحهم ما يدخل به بين. . .[٢] / وسافر إلى الحجاز، فثار فى خاطره أَن يَدَّعى [31 a] الشَّرف، فرَحل إلى الموصل وتزيّا بزىّ الشُّرفاء وأَرخى ذوائب شَعره على جانبَيْ وجهه. فضَربه بالسِّياط نَقيبُ العلويّين هنالك وجَرَّسه. والتَّجْريس: أن يُنادى عليه: هذا خَرا! ويُشهرَ بين الناس.

فسار إلى سِنْجار. واُتفق أن خَفّ على رؤسائها بكثرة التَّثقيل، وصاروا يَعْمُرون مجالسهم بالمُطايبة معه، والحكايات عنه إذا غاب. وصار له بذلك إدلالٌ يُجالس به العلماء ويَبحث فى مجالسهم. وكان الحظّ الأوفر من البليّة به للموفَّق التَّلَعفَرىّ، فجعله نُصْب أفكاره ونوادر أشعاره. فاطّرد له معه، مع اُتصال الأيام إلاّ فى النُّدرة، ما يُزرى بأشعار ابن سُكَّرة[٣] فى خَمرته. فمن ذلك قولُه:

---

(١) نسبة إلى قطربل، بالضم ثم السكون ثم فتح الراء وباء موحدة مشددة مضمومة ولام. وقد روى بفتح أوله وطائه: قرية بين بغداد وعكبرا، ينسب إليها الخمر (انظر معجم البلدان).

(٢) نقص بالأصل لا يعرف مبلغه، غير أنه يبدو قليلاً.

(٣) هو أبو الحسن محمد بن عبد الله، من ولد على بن المهدى بن أبى جعفر المنصور العباسى. وكان يقال: إن زماناً جاد بمثل ابن سكرة وابن حجاج لسخى جدا. وما شبها إلا بجرير والفرزدق فى عصرهما. ويقال إن ديوان ابن سكرة يربى على خمسين ألف بيت. وكانت وفاته سنة ٣٨٥ هـ. (انظر اليتيمة. ووفيات الأعيان).

[سريع]

أَبْنُ الجِعْـــانىّ غَدَا عِنْدنا   بضِدّ ما كانَ بقُطرَبُّلِ

صاعقــــةً أَرسلها ربُّهـا   بأرض سِنْجار على مَن يَلِى

[31 b] / دَلَّى ذُؤَاباتٍ وقال انظرُوا   سِبْطَ النَّبىّ المُصطفى المُرْسَل

حاشى السَّراة الغُرَّ من هاشم   أَن يَقرُبُوا مِن مُدَّع مُمْحِل

يَأنف مِن نِسْبته كُلُّ مَن   يَرْجِع فى النَّاس إلى أَوَّل

إنْ كان حقًّا ما أدَّعى قُلْ له   يُظْهِر ذاكَ الأَمرَ فى المَوْصل

السَّوطُ والتَّجريسُ قُدَّامه   وإنْ تَمادى أَمْرُه يُقتَل

أَراحَنا منه الذى صاغَه   من جَبَل الجُودىّ(1) كالجَنْدل

خَص جبل « الجُودىّ » لأنه لا يُفارقه الثلج. وكان هذا الرجل باردًا ثقيلًا يابس المفاصل.

وقوله :

[منسرح]

هذا الجَليسُ الذى بُليتُ به   أَقسَم أَلَّا يُفــارقَ الصَّلَفَا

فى كُل عِلْمٍ يَخُوض مُدَّعِياً   وهو جَهُولٌ بكُل ما عُرِفا

أَوْضعُ خَلْق الإلٰه كُلِّهمُ   ويَدَّعى أنه من الشُّرَفا

الموتُ منه ومِن ثَقالته   أَماتَه الله عاجلًا وكَفَى

(١) الجودى : جبل مطل على جزيرة ابن عمر فى الجانب الشرقى من دجلة . (انظر معجم البلدان) . وانظر تعليق المؤلف بعد .

وقوله :

[مجتث]

هذا الدَّعِىُّ الذى غَيْ ... رُ جَهْلِه لم يُهِنْهُ
يَرْوِى الغريبَ وتُرْوَى ... غرائبُ اللُّؤْم عنهُ
/ لطاهرٍ مُنتهاه ... والكَلْبُ أطْهرُ مِنْهُ [32 a]

وقوله :

[سريع]

لنا جَلِيسٌ باردٌ مُعْجَبٌ ... أَبعده الله وأَمثالَهُ
إذا ٱحْتَبَى فى مجلسٍ تائهًا ... أَخرج مثلَ الأَرض أَثْقالَه
ويُدَّعَى فى نَسبِ المُصطفى ... وفِعلُه يَكْذب ما قالَه
يا رَبِّ لا تَقْضِ ٱتّصالى به ... يومًا وقَطِّع منه أَوصالَه

ولم يزلْ مع الملك الأشرف إلى أن حضر معه وقعة دُنَيْسر[1] ، التى كانت له فى سنة ٱثنتين وستمائة ، على نور الدين[2] ، صاحب الموصل ، فوقع وٱرتضّ جسده ، فمات فى إثرها .

---

(١) دنيسر : من نواحى الجزيرة قرب ماردين .

(٢) هو أبو الحارث أرسلان شاه بن مسعود بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكى بن آق سنقر ، صاحب الموصل ، المعروف بأتابك ، الملقب بالملك العادل نور الدين .

وكانت وفاته سنة سبع وستّمائة . (انظر وفيات الأعيان) .

الترجمة الثانية

[ابن عطاء الله]

الشاعر الأديب المصنِّف راجى بن عَطاَء الله المِصْرىّ. ذكر لى ابنُ عبد العظيم صاحب تاريخ مصر[١] أنه كان عطّارًا بالفُسطاط ، يجلس عنده الأدباء والشعراء، ويَبيتون معه فى السَّماع. وكان من أولع خلق الله بحُضوره ، / والقول فى مَنازع غراميّاته . [32 b]

وخَدم الملك العزيز[٢] ، اُبن صلاح الدِّين صاحب مصر ، بالأدب والشعر ، وله فيه أمداح . وصَنّف له كتاب « الشعراء العَصريَّة، بالديار المصرية » . وهو مشهور بأيدى الناس .

وكانت وفاته سنة اثنتين وستّمائة .

وأكثر ما وقعتُ عليه من شعره فى طريقة السَّماع . فمّا سمعتُه يُغَنَّى به من ذلك لحفظتُه قولُه :

---

(١) هو جمال الدين أبو حسين يحيى بن عبد العظيم بن يحيى بن محمد ابن على ، المصرى المولد والوفاة ، المعروف بالجزار ، أحد فحول الشعراء فى زمانه . وقد ولد سنة ٦٠١ هـ — وقيل سنة ٦٠٣ هـ — وكانت وفاته سنة ٦٧٩ هـ .
وله « العقود الدرية فى الأمراء المصرية » ومنه مخطوطة بمكتبة ليدن ، وثانية بمكتبة باريس .
(انظر النجوم الزاهرة ، والمنهل الصافى ، وكشف الظنون ، وبروكلمان) .

(٢) هو أبو الفتح عماد الدين عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب . كان نائباً عن أبيه فى الديار المصرية. وبموت أبيه بدمشق استقل بمصر سنة ٥٨٩هـ. وولد بالقاهرة سنة ٥٦٧ هـ . وبها توفى سنة ٥٩٥ هـ، (انظر وفيات الأعيان. والنجوم الزاهرة . والمقريزى) .

[مجتث]

يا حادِىَ العِيس رِفقاً بوَخْدِهـا فى البِيدِ
وأْثنِ المطىَّ قليـلاً على المُحبِّ العَمِيـد
لَى بسَلْعٍ[1] حَبيبٌ لقاؤُه يومُ عِيـد
بَلِّغـه أنّى طريحٌ على تِلاعِ[2] زَرُود
مِن يَوْم ذاك التَّجنّى وعهدِ ذاك الصُّدود

وقولُه :

[مجزوء الرمل]

يا ثِقـاتِى نَقَلَ الأعـ ـداءِ لى عنكم وعَنِّى
بحَيَاة الحُبِّ إلاّ كُنتُم لى عند ظَنِّى
/أُحذَرُوا أَنْ تَترُكُونى فى الهَوىَ أَقْرَعُ سِنِّى [33 a]
عَذِّبُوا بكُلِّ شىءٍ غيرِ إظهـار التَّجنِّى
فمتى شُنِّع عنكم أُشْتَفَى الحُسّادُ منِّى
إن أَكُن أَبْغِى سواكم لا أَقَرَّ اللهُ جَفْنِى

---

(١) سلع ، بالفتح : جبل بسوق المدينة . وقال الأزهرى : موضع بقرب المدينة . (انظر معجم البلدان) .

(٢) زرود : رمال بين الثعلبية والخزيمية بطريق الحاج من الكوفة . وفيها يقول الشاعر :

أقول وقد جزنا زرود عشية وراحت مطايانا تؤم بنا نجدا
على أهل بغداد السلام فإننى أريد بسيرى عن بلادهم بعدا

(انظر معجم البلدان) .

لم أُمَنِّ النَّفسَ إلَّا كنتمُ أَقصى التَّمنّى
أَنا سكرانُ هَواكم وبذِكْراكم أُغَنّى
شَرِب الكُلّ بكَأْسٍ وأَنا وَحْدى بدَنّ
فلهم فَنٌّ ولى فى نَشَواتى ألفُ فَنٍّ

وقولُه :

[رمل]

يا عُيونًا باللِّوى ساهرةً حَرّم الله عليكِ الفِكَرا
أَنا فى نارِ اشتياقى مُحْرَقٌ ووُشاتى تَستطيب السَّمَرا
والذى قد ذُبْتُ مِن وَجْد به وغرام ليس يَدْرى الخَبَرا
لَيتهم لو سامحونى ساعةً بحَبيبى فاختلستُ النَّظَرا
ليس بَخْتى فى الهَوى البختَ الذى أَجْتنى البَرْد به والزَّهَرا

وأُنشدت له ، وقد بلغه أن صاحبًا له أفشى حديثًا كان بينه وبينه
[33b] لم يطلع عليه غيره ، وجعل يشنّعه على / جهة الإشفاق والنُّصح :

[طويل]

على كُلِ ما قد كان فى الوُدّ بيننا عَفاءٌ[1] مدَى الأيام غادٍ ورائحُ
تُشنِّع ما لولاكَ لم يَبْدُ للعِدَى وتَزْعم مِن جَهْلٍ بأنك ناصِحُ
أَفِقْ أيها المَغرور لستَ بلائقٍ بِخلى وقد شانَتْك تلك الفَضائح

(١) أى « عفاء على كل . . . الخ » .

الترجمة الثالثة

[هذيل الإشبيلى]

الأستاذ النَّحوى الأديب الظريف أبو الحسن هُذيل بن عبد الرحمن الإشبيلى .

ذكر ابن عُمر فى تاريخه أنه مات فى سنة اُثنتين وستمائة .

وكان أبو العبّاس النيّار الإشبيلى(١) من أحفظ الناس بأخباره وأشعاره ونوادره .

أخبرنى أنه وصل إليه طالبٌ متخلّف ليقرأ عليه ، فكان فى أول قراءته عليه قولُ كُثيِّر :

[بسيط]

حَيَّتْك عَزَّةُ بعدالهَجْر وانصرفتْ　　فحىِّ وَيحَك مَن حَيَّاكِ يا جُملُ

فصحَّفه وقال : جئتك عُرة » . فقال : وكذاك بالله ترجع يا ولدى .

وقال له يوماً : يا أستاذ ، ما الكَموْج ؟ فقال : وأين رأيتَ هذه اللفظة ؟ قال : فى قول اُمرئ القيس : [34 a]

[طويل]

* وليلٍ كموج البحر أرخى سُدولَه *

فقال : نعم ، الكموج : دويبة من دواب البر تحمل الكتب ولا تعلم ما فيها .

---

(١) كان تلميذه ، وعنه أخذ ابن سعيد . (انظر المغرب ٢٦٥) .

وقرأ عليه طالب من البربر قال : (قلْ إنْ كَان للرحمن وَلَدٌ فأنا . . .[١]) ووقف . فقال : لأى شىء بالله ؟ ألطيب شَعْرك ؟ عيسى ابنُ مَريم لم يعلّم لأصحابه ذلك ، فكيف أنت[٢] !

وخَرج يوماً من المسجد الذى كان يُقرئ فيه فوجد سائلاً وهو يُرعد بالبرد ويَصيح : الجوع والبرد يا مُسلمين ! فأخذ بيده وحمله إلى موضع فيه الشمس ، وقال : صِحْ بالجُوع، فقد رفع الله عنك البرد .

قال : ومن شعره : قولُه فى جاهل كان يلزم مجلسَه ، وكان ممَّن ضَيّق الله خُلقه ورزْقه، وأساء خَلْقه :

[منسرح]

عهدِىَ بالحِرفَة التى كُرهتْ ... مع الأديب الأريب تُصْطحبُ

وأنت ما بالُهـا عليك غدتْ ... وَقفًا ولم تَدْر قطُّ ما الأَدب

وقولُه فيه أيضاً :

[طويل]

ومن أعجب الأشياء حِرْفتُك التى ... شُهرت بها والضّيق فى الخُلق والرِّزق

[34b] ولستَ أديباً لا ولا كاتباً ولا ... جليساً على الصهباء مُسْتطيب الخُلْق

غَرائب لم تُجمع لخَلْق من الوَرى ... وأَغْربُ منها أن تُعدَّ من الخَلْق

وقال فى شَخص آخر أحْول كَثير العُجب ، وقد مَرِضت عينُه :

[طويل]

جليسٌ لنا لا يَبرح الدهرَ قاعدًا ... رمانا به الحِرْمانُ من حيثُما رَمى

(١) الآية (٨١) من سورة الزخرف . وتمامها : (أول العابدين) .

(٢) ورد بعض هذا فى المغرب لابن سعيد مختلفاً عما هنا .

له مُقلة حَوْلاَ وعينٌ مَرِيضةٌ وعمّا قريب سوف يُدركه العَمى
إذا أبصرتْ عيناى طَلْعتَه التى أموتُ بها غَمًّا أرى الموتَ مَغْنما

وقال : وقد صافحه فتًى جميلٌ من أبناء الأعيان :

[خفيف]

صَبَّح اللهُ ذلك الوجهَ بالسَّعْـ ـدِ وَحيّاه بالعُلَى والـكَرامَهْ
لم نُلاحظ يوماً لحاظَك إلا وسألنا مِن الإلٰهِ السَّلامَه

كَمل الجزء الأول

من كتاب الغصون اليانعة فى محاسن شعراء المائة السابعة .

والحمد لله والصلاة على سيدنا محمد وآله . يتلوه إن شاء الله تعالى :

تراجم سنة ثلاث وستمائة .

الجزء الثاني

من كتاب الغصون اليانعة في شعراء المائة السابعة

تراجم سنة ثلاث وستمائة :

تسع

المشارقة :

ا — من العراق :

١ — إسماعيل بن مواهب الحظيرى

٢ — جعفر بن هبة الله الكفرعزى

٣ — الحسن بن هبة الله بن دهن الحصى

٤ — أبو الحرم مكى بن زيان الماكسينى

٥ — أبو المحاسن الحسن بن نوفل الحلبى

من مصر :

١ — أبو الفضل عبد المنعم بن عبد العزيز الإسكندرانى

المغاربة :

ا — من المغرب الأقصى :

١ — أبو حفص عمر بن عبد الله بن عمر السلمى القاضى

٢ — أبو العباس أحمد بن عبد السلام الكورائى

ب — ومن الأندلس :

١ — عبد المنعم بن مظفر الغسانى

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد

تراجم سنة ثلاث وستمائة

تسع

الترجمة الأولى

[ابن مواهب]

إسماعيل بن مَواهب الحظيرى[1] . شاعر من الحَظِيرة ، ضَيعة كبيرة مشهورة من أعمال دُجيل بالجانب الغربىّ من دِجلة بين بغداد وتَكْريت .

ذكر المؤرّخون أنه مات فى سنة ثلاث وستمائة. وذكر لى الشَّرفُ يعقوب الإرْبلى أنه أُجتمع به فى إربل وغيرها وأنشده كثيراً من شعره . وكان مستجدياً جوّالا فى الآفاق .

قال: وقلت له مرةً : أرى مجد الدين بن الأثير[2] يُكرمك ويُحبك حاضراً ، ويثنى عليك غائباً ، فلِمَ لا تمدحه ؟ فقال : أهل محبّتك لا تجعلهم موضعاً لأُستجدائك / فقلت له : أنت أعرف بطريقك . [36 b]

قال : ومّما أنشدنى من شعره فكتبتُه فى أُختياراتى قولُه :

[طويل]

إذا شِئْتَ طِيبَ العَيْش لا تَكُ خادمًا ... لشخصٍ ولا مَخْدومَه أبدَ الدَّهْرِ

وحاولْ كَفافاً تَنْجُ من كُلْفة الغِنَى ... وتَخْلُصْ من الذُّل المُلازم للفقْر

---

(١) فى تاريخ ابن الساعى : « أبو محمد إسماعيل بن على بن محمد بن مواهب » .

(٢) هو المبارك بن محمد بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيبانى الجزرى أبو السعادات مجد الدين ، المحدث . ولد فى جزيرة ابن عمر سنة ٥٤٤ هـ وانتقل إلى الموصل. ومن تصانيفه : النهاية فى غريب الحديث. وهو أخو ابن الأثير المؤرخ . وابن الأثير الكاتب. وكانت وفاته سنة ٦٠٦ هـ. (انظر وفيات الأعيان . وبغية الوعاة) .

وقولُه يَعتذر عن الانقطاع بتَوالى المَطر :

[رمل]

عاقَنى عنكَ تَوالِى المَطَرِ واصِـــلاً آصالَه بالبُكَرِ
مَلأَ الأَرْضَ وُحُولاً أَصبحت وهى مثل الحِبْر هَلَّا الحِبَرِ
فكأنّ البحرَ أضحى فَوْقنا سائلاً أجمعُهُ لم[1] يُسْجَرِ
نِعمَةٌ آضَتْ لعَمَرِى نِقْمةً عَمَّت البَلْوَى بها فى البَشَرِ
وعلى ذاكَ فإنْ أَرْسلتَ لى سابحاً خُضْتُ بذاكَ البَحرِ
لا تَظُنَّ الأمرَ عندى هَيِّناً غَلَبَ الشوقُ على مُصْطَبرى

وأنشد له صاحب تاريخ إربل[2] :

[كامل]

غِبْتُم فما لِى فى التَّصبُّر مَطْمعٌ عَظُم الجوَى واُشتدّت الأَشواقُ
لا الدَّارُ بعدكُمُ كما كانت ولَا ذاكَ البهاءُ بهـــا ولا الإشْراق
عنه أَحِبَّــةٌ قَلبه يَشْتَاق أَشتاقكم وكذا المُحبّ إذا نَأى

(١) لم يسجر ، أى لم يفرغ . والمسجور ، كما يكون بمعنى الممتلىء ، يكون بمعنى الفارغ ، من الأضداد .

(٢) انظر الحاشية (رقم ١ ص ٢٩) من هذا الكتاب .

[37 a]

/ الترجمة الثانية

[الكفر عزى]

خطيب إربل وقاضيها جعفر بن هبة الله الكَفْرعَزّى، العالم المُتفنن، من كَفْرعَزّى : ضيعة من ضياع مدينة إربل حاضرة بلاد الأكراد.

وصفه صاحب تاريخ إربل[1] بالتفنّن في العلوم ومعرفة النحو والهندسة والحساب، واشتهاره بإقراء ذلك مدةً.

ووجدتُ الشَّرف يعقوب ملآنَ بأخباره وأشعاره، فذكر أنَّه كان على ما جُعل إليه من خُطة القضاء بتلك المملكة، وأُستولى عليه من الخطابة على مِنْبر سلطانها، من أَرقّ الناس حاشية وأَطبعهم مَنزعا.

ومن مُستطرف حكاياته أنه كان فى أول أمره متصدِّرًا يُقرأ عليه النحو وغير ذلك، وكان فتًى من فتيان إربل يَتردّد إليه برَسْم قراءة النحو والأدب. ثم إن ذلك الفتى أُلتحى وأَدخل نفسه فى / الأشغال [37 b] السلطانية. فصارَ مرْهوب الجناب، مَطروق الباب. وأُتفق أنه لزم وَضْعٌ سُلطانىّ أهلَ إربل، فدَخل الكَفْرعَزّى فى ذلك فأساء فيه مُعاملته. وكان ذلك الأمر قد جُعل إليه، فأَلزمه أن يحضُر مجلس الشّغل ويدفع ما رُسم عليه. فوصل إلى المجلس وهو غاصٌّ وما هناك إلا مَن يعرف مِقداره، ويلتزم إكباره، فجلس وأنشد مُشيرًا إليه :

---

(١) انظر الحاشية (رقم ١ ص ٢٩) من هذا الكتاب.

[مخلع البسيط]

هذا مَقامى لديك يا مَنْ أقام دَهْـــرًا وراء بابى
أَقْصَى أَمانيــه قربُ إذْنٍ فى دَوْلة الْحُسْن والشَّباب
إن كنتَ أُنْسيتَ ذاك فانظُر فى فَرد بابٍ من[1] الكتاب
لا تَغْتررْ بالزَّمانِ يَوْماً وأفكرْ إذا سِرْتَ فى الأَبابِ[2]
مَخارِقُ الجــاه ليس تَبْقَى ومَوقِفُ العَزْل كالحِساب
فافعَــل على قَدْر ما تُلقَّى وقلْ فلا بُدَّ من جَواب

فاستحيا ذلك العاملُ على قِلّة حيائه ، وأفكر فى باب الفاعل والمفعول أيام يَمْشى على استحيائه ، وأَخذ ما / جاء به الشيخ ، [38 a] واُشتهرت القضيَّة . وبلغت السلطانَ مُظفَّر الدِّين صاحبَ إربل[3] ، فاُستدعى الشيخَ وقال : أَغفلناك ولم يُنبّهنا أحدٌ عليك لأنَّك محسود ، ومثلك لا يُنبِّه عليه إلا نفسُه ، وقد جعلتُ عقاب ذلك الرَّذْل ، الذى لم يقابلك بما يجب ، عزلَه ، ووليَّتك الخطَابة على مِنْبر هذا الجامع . فقال : أَرغب من إحسان السلطان ألّا يُكَدّره بأن أكون سبباً لعزل شخص وقَطع رِزْقه ، وأنا ممن يَشتفى بالقول لا بالفعل . فالاُشتفاء بالأفعال من شِيم المُلوك . فقال له السلطان : أبيتَ إلّا أدباً وظَرفاً . وجاء ذلك العاملُ فصار من خُدَّامه ، والمُعترفين بإنعامه .

---

(١) الكتاب ، هو كتاب سيبويه . وفرد باب ، أى الباب الأول منه ، وهو باب الفاعل الذى لم يتعد فعله إلى مفعول . وإليه يلمح ، وقد أشار إليه فى تعقيبه .

(٢) الأباب : التهيؤ . ولعله يريد به الاستعداد لاستقبال الموت .

(٣) هو مظفر الدين أبو سعيد كوكبورى بن على كوجلك التركمانى . وكانت وفاته سنة ٦٠٣ هـ . (انظر شذرات الذهب) .

قال : ومما يجب أن يُحفظ من شعره قولُه :

[مخلع البسيط]

لا تَشْكُ فالنَّاس فى الرَّزايَا ثلاثة ثُم لا مَزِيــــدُ
إمَّا صـــديقٌ يُفاد غَمًّا أو شامتٌ كاشحٌ حَسُود
أو غافلٌ عنـــك مُستريح إليه شَكْواك لا تُفيـــد
[38 b] / ومَنْ يُسلِّيــك أو يُواسِى لم يُبْدِ شَخْصاً له الوُجُود
إلّا أحاديثَ لَفَّقــــوها يُصْغِى لها الجاهلُ البَلِيد

وقولُه :

[كامل]

لا تَقْعُدَنَّ مع العِيَال ولا تَــكُن كَلاًّ وسُدْ كُلاًّ وجِدَّ مُشمِّرَا
وجُبِ الفَيافِى واشْتهر تَنْل المُنَى لا يَقْطَعُ الهِندىُّ حتى يُشْهَرَا

وقوله :

[كامل]

اُنظُر إلىّ بخِبْرةٍ واُترُك كَلا مَ المُبغضين وكُلَّ شَخْصٍ يَحْسُدُ
فالشمسُ إنشَرُفَت وأَشرقَ نورُها ما ضَرَّها أَلّا يراها الأَرْمد

وكانت وفاته سنة ثلاث وستمائة[1] .

(١) وقد ترجم ابن الساعى للكفرعزى فقال : هو أبو محمد جعفر بن محمد ابن محمود بن هبة الله بن أحمد بن يوسف الكفرعزى الإربلى» . وذكر أن وفاته كانت فى يوم الأربعاء رابع المحرم من سنة أربع وستمائة .

الترجمة الثالثة

[ابن دهن الحصى]

الأستاذ الأديب الحسن بن هِبة الله بن دُهن الحَصَى الموصليّ ، من أدباء الموصل المُتصدِّرين للإقراء . مَذكور فى التاريخ أنه مات فى سنة ثلاث وستمائة .

وقفتُ على ترجمته فى « تاريخ حلب » وفى « تاج المعاجم »[١] / وفى « أختيارات الشرف »[٢] فلخصت منها ما أوردتُه فى هذا [39a] المكان .

كان بالموصل يُقرئ العربيّة ويَمدح صاحبها ، فرُفع إليه أَنه لما وصل صلاح الدين بن أَيّوب إلى جهة المَوصل، ورام التغلُّب عليها ، أنفذ إليه قصيدةً يمدحه فيها ، ويحُضّه على ما تَقتضيه الهمّة العالية فى المُلك . فتغيّر له[٣]، وخاف أبنُ دُهْن الحَصى ، فرحل إلى حلب وأنقطع إلى صلاح الدين فأحسن إليه ، ورتَّبه للإقراء فى جامع المدينة . فلم يزل على تلك الحال والراتبُ جارٍ عليه إلى أن مات .

فأحسنُ ما أَنشد له الشَّرفُ يَعقوب قولُه :

---

(١) يريد: تاج المعاجم للشهاب القوصى . وقد تقدم .

(٢) يريد: اختيارات الشرف يعقوب الإربلى . وقد تقدم .

(٣) الضمير لصاحب الموصل .

[سريع]

يَبتهج النـــاسُ بأعيادهم ... مِن أجل ذَبْحٍ أَو لإفطارِ

وإنما عُظْم سُروری به ... لِلَثْم من أَهوَى بلا عار

أرقُبهـــا حولًا إلى قابلٍ ... لأنهـــا غاية أَوطاری

وأحسنُ ما أنشد له الشهابُ القُوصیّ :

[طويل]

تُطالبنى عَينى فلم تَعْدُ بُعْدَكم ... وأنتم على حُكْم النَّوى فى سَوادِها

[40 a] / وتُطمِعنى فى طَيْفكم برُقادها ... فأَزجُرها كَحْلاً بميلِ(١) سُهادِها

ولى مُهْجةٌ لم تَبْق فيها بقيةٌ ... سِوى ماسكنتُم مِن صَميم فُؤادها

وأحسنُ ما أَنشد له الصاحبُ ابنُ العديم ، وهو ممّا رواه عنه :

[طويل]

وما أنا فى الشَّكْوى من البَيْن عاجزٌ
ولا ضاق فى حَمْل الرَّزايا بكم صَدْرِى

ولا خانَنى حُسن اصطبـــارى وإنما
رُميتُ من البَلْوَى بأكثرَ مِن صَبرِى

وقولُه :

[مديد]

مَنْ لصبٍّ فوق فَرشِ ضَنًى ... أبدًا فبُرْؤه يَنْتكِسْ

جَفْنُه بالدَّمـــع مُنْطَلِقٌ ... وكَرَاه عَنْهُ مُحْتَبِس

جَهِـــل العُذَّالُ مَوْضِعَه ... فهَداهُم نَحْـــوه النَّفَس

(١) الميل : ما يكتحل به .

الترجمة الرابعة

[الماكسينى]

الأستاذ المُتفنِّن أبو الحَرَم مكّى بن زيّان الماكسينى[١] ، من ماكسين، قاعدة «الخابور»، من أعمال سِنْجار. ذكر المؤرّخون أنه كان ضَريرًا . اشتغل بفُنون العلوم / ورحل فى طلبها ، فقرأ مدةً ببغداد [40 b] وبالموصل ، ورحل إلى الشام وغيرها . واشتغل بكثير من المعارف ، واستقر بالموصل مُقرئًا للعربية وغيرها ، إلى أن مات بها فى شوال سنة ثلاث وستمائة .

وقفتُ على ترجمته فى « تاريخ ابن الأثير[٢] » و « تاريخ ابن الساعى[٣] » و « تاريخ إربل[٤] » وتلخيصها :

أَن شعره كان دون عُلومه. وكان عمَاه من جُدرىّ أَصابه فى صباه[٥] .

وأَحسن ما أَنشدوه له قوله :

---

(١) التكملة من معجم الأدباء، ونكت الهميان، وبغية الوعاة .

(٢) هو الكامل فى التاريخ لابن الأثير أبى الحسن على بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى الجزرى، الملقب بعز الدين ، المتوفى سنة ٦٣٠ هـ . بدأه مؤلفه بأول الزمان وانتهى فيه إلى آخر سنة ٦٢٨ هـ . منه طبعات مختلفة ، إحداها وهى أحسنها ، التى طبعت بمدينة ليدن (١٨٥١ — ١٨٧١) فى اثنى عشر مجلداً ، منها مجلدان للفهارس .

(٣) انظر الحاشية (رقم ٣ ص ٥) من هذا الكتاب .

(٤) انظر الحاشية (رقم ١ ص ٢٩) من هذا الكتاب .

(٥) العبارة فى « النكت » : « أنه أضر بأخرة » .

[وافر]

إذا أُحتاج النَّوالُ إلى شَفِيع ... فلا تَقْبلْه وأُنْجُ[١] قَرِيرَ عَيْنِ

إذا عيف النَّوالُ بفرْد[٢] مَنٍّ ... فأولَى أَنْ يُعَافَ بِمَنَّتَيْنِ

وقولُه :

[كامل]

لك منزلٌ فى القَلْب غيرُ[٣] مُذَالِ ... كمرَاتِع الآرام والآجالِ

لم يَعْفُه العَهْدُ القَدِيمُ وكم عَفَت[٤] ... دارٌ بمَرٍّ جنائبٍ وشِمَال

وقولُه :

[وافر]

إذا ما كُنتَ لا تَرْعَى حُقوقاً ... لإخوانٍ هُمُ رفعوا مَنَارَكْ

[46 b] / وتُلْزِم كُلَّ حينٍ أن تُراعَى ... ولا يَنْسى أَخو وُدٍّ مَزَارَكْ

وتَقْطع دَهْرَنا تِيهاً وعُجْباً ... وتأبَى داعياً إلَّا أختيارك

فزادَك — ما بقيتَ — اللهُ بُعْدًا ... ولا أَدْنَى على حالٍ دِيارَكْ

وقولُه :

[طويل]

على الباب عبدٌ يطلب الإذنَ صَدَّه ... تأدُّبه[٥] لا أَنَّ نُعْماك تُحْجَبُ

فإن كان إذْنٌ فهو كالخيْر داخِلٌ ... عَلَيك وإلاَّ فهو كالشَّر يَذْهب

---

(١) الرواية فى معجم الأدباء ، والنكت : « تضحى » .

(٢) فى المعجم ، والنكت : « لفرد » .

(٣) المذال : المهان .

(٤) الفعل « عفا » يستعمل لازماً ومتعدياً .

(٥) الرواية فى معجم الأدباء : « قاصداً * به أدباً » .

ووَلِعْتُ بحفظ هذين البيتين، واُحتجتُ مرةً إلى طَلب الإذن على فخر الدين ابن الشيخ[1] ، نائب السَّلطنة بالديار المصرية ، فكتبتُ إليه :

[مخلع البسيط]

ماذا تَرى فى دُخول مَنْ لَا يَرُوم شيئًا سِــوَى الدُّخُولِ

تَحْصِـــيل جاهٍ وكَفُّ باغٍ والأمر لله فى القَبُـولِ

فخرج فى الحال حاجبُهُ وقابل بما يليق بمكارمه ، وجَعـل يَستحسن « والأمر لله فى القبول » ويكرّرها .

---

(١) هو الأمير فخر الدين يوسف ابن الشيخ صدر الدين محمد الزاهد العابد . وكان مقتل فخر الدين سنة ٦٥٧ هـ . ووفاة أبيه سنة ٦٥٢ هـ . (انظر النجوم الزاهرة) .

الترجمة الخامسة

[ابن نوفل]

[47 a] الأديب الحسيب أبو المحاسن / الحسنُ بن نَوفل الحلبيّ ، من بيت مَشْهور فى حلب إلى الآن . ذكره ابنُ العديم فى تاريخها ، وأخبر أنه ممن يُنسب إلى الكتابة والرياسة، وأنه مات ببلده سنة ثلاث وستمائة. وأحسنُ ما أنشده من شعر قوله :

[كامل]

مَن ساءه أن بات فى أَسْر الهَوى قَلِقَ الجوانح دامِيَ الآماقِ
فلقد غدوتُ وقد سَبَتْنى أعْيُن الْ أَتْراك مَشدوداً أَشدَّ وَثاق
ها مُهْجتى فَلْتفعل الأحداقُ ما شاءتْ بمَحْمولٍ على الأحْداق

وتلقَّيت من بعض أقارب هذا المذكور أنه كان جُنديًّا مُخالطاً للمُلوك ، وَأنه قال فى بعض الوُلاة :

[منسرح]

يا مُظْهِرَ العَقْل فى وِلايته كيف وما زِلْتَ ظاهرَ النَّزَقِ
لا تَسْتقرُّ الزمانَ أجمَعَه مِن عُظْمِ ما قد حَمَلْت من قَلَق
مُقدِّماً من يُرَى تأخُّره مُؤَخِّراً مَن يفُوز بالسَّبَق
ووَضْعُك الشَّىْءَ غَيْرَ مَوضِعِه يَشْهد عند الأنَام بالْحُمْق
مع الذى تَقْتَضى الفِراسةُ مِن تَصْغير رأسٍ والطُّول فى العُنُق

/ وأنشدنى له بعضُ أدباء حلب قصيدةً فى خِتان، أُخترتُ [47 b] منها قولَه :

[وافر]

خِتانٌ فيه بالكرم أعتبارُ وبالشَّمع المُنير وباليَراعِ

جَرى دمُه لنا شَفَقاً مُذَاباً لدى بَدْرٍ تَلفَّع بالشُّعاع

أتَى ظَبْياً وأَبدى صَبْر لَيْثٍ بضَنْكٍ فيه ذُمَّ أخُو الدِّفاع

وكتب إلى وزير حَلب أبن المَوْصول المشهور بالجود :

[بسيط]

يا مَنْ أَمالَ الورى طُرًّا إلى حَلبٍ بالجود والخلق المألوف والأدَبِ

لا زِلْتَ فى نِعمةٍ يَقْضِى الزمانُ بها أصمَّ أعمَى بلا هَمٍّ ولا نَصَبِ

ولا شكوتُ بما أَشْكو إليك به الفَقْرِ والشَّيْب والتَّزويج والجَرَبِ

وعرَّفه أنه تزوّج أمرأةً أكتأب بها وهو على هذه الحال ، وأنه لا يَمنعه من طلاقها الذى لا يُريحه غيرُه إلاَّ عدم الصَّداق. فوجّه إليه بصداق المرأة وما يشترى به جارية، وما يُنفقه عليها ، ويُعانى به الشَّيب بالخِضاب ، والجربَ بالأدوية والأغذية ، فقال فيه :

[مديد]

وَصل الموصولُ كُلُّ علَا بِكَ يا مَنْ لا نَظيرَ لَهُ

/ لك – دون المُبتلَى حَسَدًا – آخِرٌ قد زان أوَّلَه [48 a]

وسمـــــاحٌ ناهضٌ وله خُلُقٌ في النّاس أسفلُه
وكَفاه أن يَذُوب جَوًى كُلَّما أصبحتَ تُخمِلُه
ويَذُوق الموتَ من كَمَدٍ كلّما حازيتَ منزلَه
والوَرى داعٍ ومُلْتفت وسَؤول مَدّ أَنْمُلَه

الترجمة السادسة

[عبد المنعم]

الفقيه أبو الفضل عبد المُنعم بن عبد العزيز الإسكندرانى[1] .

وقفت على ترجمته فى « تاريخ ابن الأثير » و« تاريخ ابن الساعى »

ووجدت الأسعد بن يَعْرب شيخ علماء الإسكندرية مليئاً بأخباره ،

فلخَّصتُ من جميع ذلك أنه تفقّه بالإسكندرية على مَذهب مالك ،

ورَحل إلى بغداد فتأدّب ولَقِى الفُضلاء. ولم يزل يأخُذ نفسَه بقول

الشعر إلى أن صدر له مثلُ قولِه : [بسيط]

يا ساحرَ الطَّرف لَيْلِى ما له سَحَرُ   وقد أَضَرَّ بجَفْنى بعدكَ السَّهرُ

/ ولستُ أَدرى وقد صَوَّرتُ[2] شَخْصك فى   قَلْبِى المَشُوقِ أَشمسٌ أنت أم قمر [48 b]

ما صَوَّر الله هذا الحُسن فى بَشَر   وكان يُمكن أَلَّا تُعْبَدَ الصُّور

أنت الذى نَعِمتْ عَيْنى برُؤْيته   لأنها شَقِيت من بَعْدها الفِكَر

أُموتُ وجدًا ومالى منك مَرْحمةٌ   وكم حَذِرْتُ ولم يَنْفَعْنِىَ الْحَذَر

أَسْتغفر اللهَ لا والله ما خُلِقَتْ   عَيناكَ إلّا لكى يَفْنى بها البَشر

وقوله :

[مجزوء الرمل]

أيّهــــذا المُتجنِّى   ما الّذى رابَك منِّى

---

(١) وزاد ابن الأثير وابن الساعى « المعروف بابن النطرونى » .

(٢) فى تاريخ ابن الساعى : « خيلت » . وفى الفوات : « مثلت » .

كُلَّ يومٍ مِن جَفائى لك فَنٌّ بعد فَنّ
بالّذى لم يُغْنِنى عَنْك وقد أَغْناك عنِّى
لا تُنَغِّصْ عِيشةً أَنْت لها أَقْصى التَّمنّى
وافْعل الخَيْر إذا اسطعْتَ ولكنْ دون مَنٍّ
فأحقُّ النّاس بالإحْسان مَن فاز بحُسْنٍ

وقولِه فى الإخوانيّات : (بسيط)

يأيُّها المُتَمنِّى ما عداه أَفِقْ مِن سَكْرةٍ لستَ مَنهاصاحِىَ الفِكَر
وخُذْ مِن الدّهر ما أَعطاك مُقْتنِعًا بالصَّفْو طَوْرًا وَمَزْ وجًا مع الكَدَر
مُنَغَّصُ العَيْش من لا يَرْتضى أبدًا حالًا ولم يُلْفَ إلّا طامِحَ البَصر
لو أنَّه صار حيثُ المجدُ منزلُه لظلَّ ذا طَمعٍ فى هالَة القمرَ
فلا صَنيعَةَ إلّا وهى ضائعةٌ فيه وليس على وَهْنٍ بمُصْطَبر
وكيف تَلْقاه ذا شُكْرٍ لصاحِبه مَن ليس يَبرحُ غَضبانًا على القَدَر

ووُجّه من بغداد رسولًا إلى يحيي الميُورقى[1] بإفريقية، فرجع بعشرة آلاف دينار، ففرّقها فى أهل وُدّه ومعارفه ، ومات فقيرًا بمارستان بغداد فى جُمادى الآخرة سنة ثلاث وستمائة .

(١) هو يحيي بن غانية الميورقى الثائر ، استقل بإفريقية فترة . قال عبد الواحد المراكشى فى كتابه المعجب : « ولما كانت سنة ٦٠١ هـ تجهز أمير المؤمنين أبو عبد الله فى جيوش عظيمة وقصد بلاد إفريقية ، وقد كان الميورقى يحيى ابن غانية قد استولى عليها ، هيأ له ذلك غفلة الموحدين عنه واشتغال أمير المؤمنين أبى يوسف بغزو الروم بالأندلس » .

الترجمة السابعة

[السلمى]

القاضى الأديب أبو حَفص عُمر بن عبد الله بن [محمد بن عبد الله بن][1] عمر السُّلَمى القاضىّ .

وقفت على ترجمته فى «تاريخ ابن عُمر [2]» و«معجم الشَّقُنْدِى»[3] و« معجم والدى » و« خُلاصة الإبريز لمحمد بن عبد العزيز[4]» فلخّصت من ذلك : أنه كان فقيهاً علّامة ، وفى النَّظم والأدب أندرَ علَامة . جَل بين قومه بمدينة فاس / مقدارُه ، وقُضيت بها فى الجاه والمال أوطاره ؛ [49 b] إلى أن كان هنالك من أهل الفُتيا ، ثم صار من جُلساء أصحاب الأمر وأرباب العُليا ؛ ثم ترقّى إلى الَخطابة والقضاء ، وصار ذا إبرام وإمضاء . ومن المشهور عنه فى قَضائه العدلُ فى الأحكام ، وقلّةُ النَّزق عند اُختلاف الخصام . وكان فى غاية من الظَّرف ، إذا أقبل شُمَّت رائحةُ الطِّيب منه

---

(١) الإضافة من أزهار الرياض (٢ : ٣٦١) . وانظر التكملة (ت ١٨٣١) وصلة الصلة (ت ١٣٠) وجذوة الاقتباس (ص ٢٨٦ — ٢٨٨) وزاد المسافر (ص١٠١ — ١٠٢) ونفح الطيب (٤ : ٣٢٥) — إلا أن المقرى نسبه خطأ إلى قرطبة — ورحلة العبدرى (مخطوطة الأسكوريال ص ١٤) . ورفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة — وهو شرح لقاضى غرناطة أبى القاسم محمد بن أحمد بن محمد الحسنى البّى على مقصورة أبى الحسن حازم بن محمد بن حسن بن حازم التى عارض بها مقصورة ابن دريد (١ : ١٠٠ — ١٠١) .

(٢) انظر الحاشية (رقم ١ ص ٤٣) من هذا الكتاب .

(٣) انظر الحاشية (رقم ٢ ص ٤٠) من هذا الكتاب .

(٤) ذكر حاجى خليفة كتاباً بهذا الاسم فقال : « خلاصة الإبريز ، تذكرة للملك العزيز ، فى العقائد ». ونسبه لسيف الدين أبى الحسن على الآمدى المتوفى سنة (٦٣١ هـ) .

على بُعد ، وإذا غُسلت ثيابه لا يكاد يُفارقها. وكان منزله كأنه الجنّة، حتى وَجد فيه أعداؤه مَطعناً ، ورفعوا للمَنصور[1] أنه غير حافظ للناموس الشرعى بكثرة تغزله واُشتهار مُقطعاته واُنهماكه فى العشق . ووافق ذلك أن رَمى ابنُ أخٍ له يَده فى اُمرأة وغَصَبها على الدُّخول لمنزله،وشَهد بذلك عند أبى موسى بن رُمّانة ، حافظِ فاس ، جماعةٌ . فأمر بإحضار المذكور بعد صلاة الصُّبح وضَرب عُنقه . وطلع القاضى ليتكلّم فيه [50a] / وقد بلغه أنه متَعَفّف ، فقيل له فى الطريق : إنه قد فات الأمر . فرجع . وكتب فيه الحافظ وأَعلم أن فقهاء فاس أجمعوا على تأخيره عن الإمامة والخطابة وولّوا غيرَه ، حتى يصل الإذن العالى إمّا باستقرار الثابت أو بتَعويضه . فوصل الأمرُ بوصول أبى حَفص إلى الحضرة . فما جُهل مكانه ، ولا صَغُر شانه .

وولّاه المنصور قضاءَ إشبيلية . فشُكِرت فيها سيرتُه ، وحُمدت سَريرته . ومات بها وهو قاض فى سنة ثلاثٍ وستمائة[2] .

---

(١) مر التعريف به فى الحاشية (رقم ١ ص٣٤) من هذا الكتاب .

(٢) فى وفاته خلاف . قال المقرى فى أزهار الرياض نقلاً عن ابن فرقد إن وفاته كانت سنة اثنتين وستّمائة بإشبيلية وهو يتولى قضاءها . وقال ابن الزبير فى صلة الصلة : « ثم ولى قضاء إشبيلية ثم أخر وبقى بها ثم أعيد للخطة واستمر إلى أن مات سنة ٦٠٤ هـ . ذكره ابن خليل وروى عنه وصحبه. وروى عنه أبو جعفر بن فرقد وأبو مروان الباجى وغيرهم . وذكره الشيخ فى الذيل ووهم فى وفاته » .

وله موشّحات مشهورة يُغنَّى بها فى الأقطار، منها :

حُسَّانَةٌ[1] رخيمهْ عانقتُ منها البانَه

والنَّقَى الرَّجْراج وَاشَوْقِى لحُسَّانَه

وممّا هو داخل فى « كنوز المعانى » قولُه :

[وافر]

هُمُ نَظَروا لواحظها فهامُوا وتَشرب عَقلَ شارِبها المُدامُ

يَخاف الناسُ مُقلتها سِوَاها أيذعَر قَلْبَ حامِلِه الحُسَام

سَما طَرْفى إليها وهْو باكٍ وتَحْتَ الشَّمس يَنْسكِبُ الغَمَام

وأذكرُ قدَّها فأنُوح[2] وَجْدًا على الأغصان تَنْتدب الحَمَام

/وأَعقبَ بَيْنُها فى الصَّدْرِ غَمًّا إذا غَرُبت[3] ذُكاءُ أتَى الظلام [50 b]

وقد اُشتهر فى الغرب والشرق قولُه :

[وافر]

لها رِدْفٌ تَعلّق من لَطِيفٍ وذاكَ الرِّدْفُ لِى ولها ظَلُومُ

يُعذّبنى إذا فكَّرتُ فيه ويُتْعِبها إذا رامتْ تَقُوم

ومن هذه القصيدة :

[وافر]

أُعيذُكِ يا سُلَيمى من سُلَيْمٍ قَتَلْتِ فَتاهُمُ وهو الزَّعِيمُ

---

(١) الحسانة : الحسنة . وظاهر أنه يريد بها مسماة بهذا الوصف .

(٢) فى أزهار الرياض (٢ : ٣٦٦) : « شوقاً » مكان « وجدا » .

(٣) فى أزهار الرياض : « اغتربت » . وذكاء : اسم الشمس ، معرفة لا ينصرف ، ولا تدخلها الألف واللام .

أمَالَكِ طالبٌ بِتِرَاتِ قَتْلى إذا قَتَــل الغَرامُ فلا غَرِيم

وحضر يوماً معه أبو بكر بن مَيْمون وأبو العبّاس الـكُورأنى(١). فقال الـكُورأنى :

[كامل]

ما زِلْتُ أَضْرب بالقَنا المُنْـآدِ حَلَقَ الدُّروع وأَنْفُس الحُسَّادِ

ثم قال ابنُ مَيْمون :

[كامل]

وحَسِبْتُ أَنِّى لا أُرَاعُ لحادثٍ حتى بُليتُ بسَطْوةِ الأَحْقادِ

فقال أبو حَفْص :

[كامل]

مَنْ لم يَبِتْ والبَيْنُ يَصْدَعُ قَلْبَه لم يَدْرِ كيف تَفَتُّتِ الأَكْبادِ

ولما قال فيه أبو العبّاس الـكورانى :

[رمل]

[51 a] / نَبغتْ عَمْرةُ بنتُ ابنِ عُمر هذه فاعتبرُوا(٢) إحدَى العِبَرْ

قُلْ لهـــا عنِّى إذا ما جِئْتِهَا قَوْلةً تَتْرك صَدْعاً فى(٣) الحَجر

هَبْكِ كالخَنْساء فى أَشعارها أو كَلَيْلى(٤) هل تُجارِين الذَّكَر

(١) ستأتى ترجمته (ص ٩٨) من هذا الكتاب .

(٢) فى أزهار الرياض (٢ : ٣٦٤) : « فلتعجبوا أم العبر » .

(٣) فى أزهار الرياض : « لاقيتها * قولة تترك فى الصخر أثر » .

(٤) الخنساء : هى تماضر بنت عمرو الشاعرة ، ولها ديوان شعر . توفيت سنة ٢٤ هـ . وليلى ، هى بنت عبد الله الأخيلية ، شاعرة . ولها مع توبة الحميرى أخبار ، تلى فى الطبقة الخنساء . وكانت وفاتها سنة ٧٥ هـ .

قال فى جوابه :

[متقارب]

نَهانِىَ حِلْمِى فـمـا[1] أَظْلِمُ　　وعَزَّ مَكانِى فـمـا[1] أُظْلَمُ

ولا بُدَّ مِن حاسـدٍ قَلْبُهُ　　بنُور مآثرنا[2] مُظْـلِمِ

بَغــانا الحسودُ ولسنا كما　　يقول ولـكن كما يَعْلَم

وخرج فى صباه مع شيخه أبى ذَرّ النحوي[3] فأثَّرت الشمسُ فى وجهه ، وكان وسيماً ، فقال الأستاذ[4] :

[مديد]

وسَمَتْكَ الشَّمسُ يا عُمـر　　وَسْمَةً بالحُسن تُعْتَـبرُ

فقال أبو حَفص :

[مديد]

علمتْ قَدْر الَّذي صَنَعتْ　　فأُنْثنتْ صَفراءَ تَعْتَذِرُ

ولما أَنشد أبا يعقوب بن عبد المؤمن قصيدتَه التى أولُها :

---

(١) فى أزهار الرياض : « فلا » .

(٢) زاد المقرى فى الأزهار بعد هذا البيت :

رحمت حسودى على أنه　　يقاسى العذاب وما يرحم

(٣) هو مصعب بن محمد بن مسعود الخشنى الأندلسى الجيانى أبو ذر ابن أبى الركب النحوى . وكانت وفاته سنة ٦٠٤هـ . (انظر التكملة ت١٠٩٨ = وبغية الوعاة للسيوطى) .

(٤) روى المقرى الخبر فى النفح (٥ : ٢٥٩) فقال : « وخرج أبو بكر ابن طاهر وأبو ذر الخشنى والقاضى أبو حفص بن عمر ، وهو إذ ذاك وسيم . فأثرت الشمس فى وجهه ، فقال أبو ذر :

وسمتك الشمس يا قمر　　سمة فى القلب تنتثر

فقال الآخر :

علمت قدر الذى صنعت　　فأتت صفراء تعتذر

[بسيط]

اللّٰه حَسْبُك والتِّسْعُ الحَوامِيمُ ... تَحْوِى بها سَبْعةً هُنَّ[1] الأَقاليمُ

وانتهى منها إلى قوله :

[51 b] / يا سامعين أماديحَ الإمامِ ألاَ ... فاجْثُوا على رُكَبِ الإعظامِ أو قُومُوا

قام جميعُ مَن فى المجلس .

وله من قصيدة يمدح بها ابنه المنصور ويُهنّئه موقعة الأَرَكِ[2] بالأندلس :

[وافر]

أطَاعتْك الذوابلُ والشِّفَارُ ... ولَبَّى أَمرَكَ الفَلَكُ المُدَارُ

بِبُشْرى مثل ما ابتهجت رِياضٌ ... وسَعْدٍ مِثْل ما وضح النَّهار

وفَتْحٍ مثل ما انفتحت كِمَامٌ ... وشُقّت عن صُدورِمَهَا[3] صِدَار

وآمال كما مُدَّت ظِلال ... وأفعال كما مُدَّت بِحَــار

---

(١) فى الأزهار : « تغزو بها سبعة وهى . . . »

(٢) الأرك : حصن منيع بمقربة من قلعة رباح أول حصون أدفونش بالأندلس . وهناك كانت وقعة الأرك على صاحب قشتالة وجموع النصارى على يد المنصور يعقوب بن يوسف سنة ٥٩١ هـ . (انظر صفة جزيرة الأندلس) .

(٣) الصدار : القميص الصغير ، والدرع القصيرة .

وأَعــلامٌ بنَصْرِكَ خافقاتٌ لها فى كُل جوّ مُسْتَطار
لِيَهْنِئْ أرضَ أندلس بُدورٌ مِن السَّراء ليس لها سِرَار

ومنها فى وَصف الروم :

وكم رامُوا الفِرارَ من الرَّزَايا ولـكنْ أين من أَجَلٍ فِرارُ
تُدار عليهمُ حُمْر المَنايا بكأسٍ فيـه عَقْر[1] لا عُقَار
إذا ما الليثُ أَصْبح فى مَحل فمـا لطريدةٍ فيــه قَرَار

---

(١) العقر : النحر . يريد : الموت قتلاً .

الترجمة الثامنة

[الكورائى]

[52 a] الأديب الجليس أبو العبّاس / أحمد بن عبد السّلام الكُورائىّ[١].

وقفتُ على ترجمته فى « تاريخ ابن عمر » و « تاريخ ابن نَجِيل »[٢] و « خُلاصة الإبريز لابن عبد العزيز » و « معجم والدى » و « مُعْجم الشَّقَنْدى». وتلخيص ذلك أنه من تَادَلا[٣]، عمل مشهور بين مَرَّاكُش وفاس. وقومه « كُورَاية » برابر يَعيبهم أهلُ المغرب ويزعمون أنهم يهود. وقداستطرد لهجاء بنى المَلْجوم أعيان فاس وعِلْيتهم[٤] فى قوله :

(١) فى أزهار الرياض (٢ : ٣٦٤) وزاد المسافر (٧—٩) ونفح الطيب (٥ : ٢٢٨) ووفيات الأعيان (٢ : ٤٩٤) والمقتضب من تحفة القادم : «الجراوى». وهو على هذا منسوب إلى « جراوة » بالضم : موضع بإفريقية بين قسنطينية وقلعة بنى حماد. ولكن المؤلف هنا نسبه كما سيأتى بعد قليل إلى قبيلة « كوراية » من البربر.

وقد ذكر الأستاذ محمد المنونى فى كتابه « العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين» أن ابن عذارى فى كتابه البيان المعرب أورد للجراوى شيئاً من شعره. وذكر أن هذه المخطوطة فريدة يحتفظ بها الأستاذ كولان بالرباط.

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن نجيل. وله كتاب فى تاريخ الدولتين : الموحدية والمفضلية. (انظر دليل مؤرخ المغرب الأقصى).

وانظر زيادة فى التعريف به (ص ١٥٨).

(٣) الذى فى معجم البلدان « تادلة » وعرفها ياقوت بأنها من جبال البربر بالمغرب قرب تلمسان وفاس.

(٤) العبارة فى أزهار الرياض : « وكان أبو العباس الجراوى المذكور هجاء، حاضر البادرة، سريع الجواب. ومن أغرب ما صدر عنه فى ذلك أنه هجا قبيلة بنى غفجوم استطراداً بهجو أهل فاس وقاضيهم ابن الملجوم، ولكبير البيت الشهير الأصالة ». ثم أورد له أبياتاً ستة.

[كامل]

يا بنَ السَّبيل إذا مررت[1] بتادَلا ... لا تنزلنَّ على بنى غُفْجُوم

قومٌ طَوَوْا طُنُبَ[2] السَّماحةِ بينهم ... لكنَّهمْ نَشَرُوا لِواء اللُّوم

يا ليتَنى من غيرهم ولو أنَّنى ... من أهل[3] فاسٍ من بَنى المَلْجُوم

وطَرّاه[4] شاعر ببراءة فيها أبيات ، فكتب له عليها :

[مخلع البسيط]

يا مَن يُطَرِّى لمن يُطرَّى ... أسْرَفْتَ واللهِ فى التعدِّى

أنا أُطرِّى الأنامَ طُرًّا ... وأنت تَبغى النَّوالَ عِنْدى

فلما وقف الشاعر على ذلك زاد بعده :

/ نُسِبْتُ للمُسلمين ظُلْماً ... وكان شيخَ اليهود جَدِّى [52 b]

وهو من شُيوخ أدباء المَغرب . رُزق طولَ العمر والجاه ومُجالسة الخلفاء . فأول من جالسه منهم عبد المؤمن[5]، ثم جالس أبا يعقوب[6]،

(١) فى الأزهار : « نزلت » . وبنو غفجوم : قبيلته .

(٢) فى الأزهار : « ذكر » .

(٣) فى الأزهار : « من أرض » .

(٤) طرى وأطرى ، بمعنى . وفى زاد المسافر (ص ٨) : « واستجداه شاعر بقصيدة فوقع فى أسفلها » ثم ذكر البيتين ، إلا أنه أثبت « يجدى » و « أجدى » مكان « يطرى » و « أطرى » .

(٥) هو عبد المؤمن بن على الكومى — نسبة إلى كومية ، من قبائل البربر — مؤسس الدولة المؤمنية « الموحدين » فى المغرب . ولد سنة ٤٨٧ هـ . وكانت وفاته سنة ٥٥٨ هـ .

(٦) هو أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، من ملوك الموحدين . ولى بعد وفاة أبيه سنة ٥٥٨ هـ . وكانت وفاته سنة ٥٨٠هـ .

ثم جالس المنصور[١] ، وصنّف له كتاب « صفوة الأدب » المشهور بـ « حماسة الكوراني[٢] » .

ولما احتيج لرجل عامل عارف يجالس ابن مُنْقذ[٣] ، رسول صلاح الدين بن أيوب الواصل من المشرق ، وقع الاختيار عليه ، فما أُتيح لأحد مجالسته سواه . ثم جالس الناصر[٤] وحضر معه على فتح المهدية[٥] ، وانصرف فى خدمته إلى الحضرة ، ومرض الناصر فهنأه بقصيدة أولها :

[خفيف]

أَطلع الدهرُ منك بدرًا مُنيرًا ملأ السَّبعــةَ الأَقاليمَ نُورًا

ثم مات سنة ثلاث وستمائة[٦] .

وكان يقول فى آخر أيامه :

تَعساً لطول العمر الذى أخّرنى لمعاشرة هؤلاء الأنذال ! وعهدى بالخليفة عبد المؤمن يقول لى فى جبل الفَتْح : يا أبا العباس ، إنّا نُباهى بك أهلَ الأندلس .

---

(١) انظر الحاشية رقم (١ ص ٣٠) من هذا الكتاب .

(٢) قال ابن خلكان (٢ : ٤٩٤) : « صفوة الأدب وديوان العرب لأبى العباس الجراوى . وهو مجموع يحتوى على فنون الشعر على وضع الحماسة لأبى تمام الطائى . وهو عند أهل المغرب كالحماسة عند أهل المشرق » .

(٣) هو أبو المظفر أسامة بن مرشد بن على بن مقلد بن نصر بن منقذ الكنانى الكلبى الشيزرى المتوفى سنة ٥٨٤ . (انظر وفيات الأعيان) .

(٤) انظر الحاشية رقم (١ ص ٣٣) من هذا الكتاب .

(٥) المهدية : مدينة بإفريقية بينها وبين القيروان مرحلتان . (انظر معجم البلدان) .

(٦) هذا رأى المؤلف . وذهب غيره ممن ذكرناهم قبل أن وفاته كانت سنة ٦٠٩ هـ .

وقال فى ابن / خِيار الجَيّانى(١) الذى سَعى بابن عَطِيّة(٢) وزير [53 a] عبد المؤمن وبلغ عنده الغاية فى الجاه بعد ذلك :

[متقارب]

أيابنِ خِيارٍ بَلغْتَ المَدَى ... وقد يُكسَفُ البدرُ عند التَّمامِ

فأين الوزيرُ أبو جَعْفر ... وأين المُقَرَّبُ عبدُ السَّلام

وكان عبد السلام الكُومى(٣) قد ولى الوزارة بعد أبى جعفر ، فلم تمرّ به الأيام حتى نُكب وخُنق . فما كان أقصر أمره .

ولما عَظُم أبو زيد بن يُوجّان(٤) فى وزارته أغرى المَنصور بالكورانى وقال له : إنه من أهل الشعر والهَزل ، وما يليق بمجالس الخلافة إلا أهلُ العلم والجِدّ ، فهُجر . فلما نُكب ابن يُوَجّان هجاه فأكثر . ومما ليس بمُقذع من ذلك ، قولُه :

[طويل]

لقد كنتَ تحكى فى التجهُّم مالكاً ... وكانت بك الأحوالُ تحكى جَهَنَّما

فما أعظم البُشْرى بعودك خاملاً ... وغيرك قد أضحى النَّبيه المُقَدَّما

(١) لم يذكره المراكشى بين من وزروا لعبد المؤمن أو كتبوا له .

(٢) هو أبو جعفر أحمد بن عطية . وزر لعبد المؤمن إلى أن قتله فى شهور سنة ٥٥٣ هـ . (انظر المعجب ص ١٩٨) .

(٣) هو عبد السلام بن محمد الكومى ، وكان يدعى المقرب ، لشدة تقريب عبد المؤمن إياه . وزر لعبد المؤمن بعد مقتل أبى جعفر . واستمرت وزارته إلى أن أرسل إليه عبد المؤمن من قتله خنقاً سنة ٥٥٧ هـ . (انظر المعجب ص ١٩٨) ونفح الطيب (٧ : ١١٠ — ١١١) .

(٤) هو أبو زيد عبد الرحمن بن موسى بن يوجان الهنتانى . وزر للمنصور وصدراً من إمارة ابنه أبى عبد الله ، ثم عزل عن الوزارة .

وهو أديب المغرب على الإطلاق فى زمانه ، مع ما له من اعتداد بالنفس والاقتدار فى التقصيد . ومن عنوان/ ذلك قوله من قصيدة [53 b] يمدح بها المنصور ، ويذكر فَتْح قَفْصَة(١) وانهزام المَيُورقىّ(٢) :

[بسيط]

عدوّكم بخُطوب الدّهْر مَقْصودُ ... وأَمركمْ باتّصال النصر مَوْعودُ

ومُلْككم مستمرٌّ ما له أَمدٌ ... مؤقَّتٌ دُون يوم الحشْر مَحْدود

ألقى على كلّ جَبّار كَلاكَلَه ... كأنه وهو فى الأَحياء مَفْقود

وهَبْه عاش أليس الموتُ أرْحَمَ مِن ... عَيْشٍ يُخالطه هَمٌّ وتَنْكيد

أَنْحَى الزمانُ على الأَغْرار واجتهدتْ ... فى قَطْع دابرِهم أحداثُه السُّود

ونازعتْهم سيوفُ الهِنْد أَنفسَهم ... فلم يُفِدْهم عن الهَيجاء تَغْريد

فهُمْ على التُّرب صَرْعَى مِثْلَه عددًا ... إن كان يُقْضَى بأنَّ التُّربَ مَعْدود

إذا حَمَى الأَسدُ الغَضْبانُ رابيةً ... لم يُفترس ثَعلبٌ فيها ولا سِيد

وخَتَمها بقوله :

رِضاكُمُ الدِّينُ والدُّنيا وعدْلكمُ ... ظِلٌّ ظليلٌ على الإسلام مَمْدود

---

(١) قفصة : بلدة صغيرة فى طرف إفريقية من ناحية المغرب من عمل الزاب الكبير بالجريد . بينها وبين القيروان ثلاثة أيام . (انظر معجم البلدان) .

(٢) يريد: على بن إسحاق الميورقى ،وكان عرب بنى هلال ومن انضم إليهم قد اجتمعوا على خلع طاعة الموحدين والانضواء إلى على بن إسحاق ، ولقبوه أمير المسلمين . ودخل علىّ قفصة ودعا للعباسيين. فلما بلغ النبأ أبا يوسف أمير الموحدين سير إليهم جيشاً سنة ٥٨٣هـ . وكانت الدائرة فيه على الملثمين. (انظر المعجب ٢٧٤) .

دُمْتُم حياةَ بنى الدُّنيا ودام لكم نَصْرٌ وفَتح وتَمْكين وتَأْييد

وله من قصيدة : [طويل]

عَصَوْا دَعوةَ المَهدىّ وهى سَفينةٌ فأغرقهم طُغيانُهم وهو طُوفانُ

/ومن غُر قصائده قصيدتُه فى « رياح »[1] يستميلهم إلى خدمة الأمير : [54a]

[طويل]

أَحاطت بغاياتِ العُلَا والمَفَاخِرِ على قَدمِ الدُّنيا هلالُ بن عامرِ

وزانُوا سماءَ المَجد عَوْدًا وبَدْأَةً بسُمْر القنَا والمُرْهَفات البَواتِرِ

هم المُضريّون الذين سُيوفُهم صواعقُ بأسٍ تَنْتَحى كُلَّ كافر

أوائلُهم فى الجود والبأس غايةٌ وكم تركوا من غايةٍ للأَواخر

وكم فيهمُ من مثل كَعْب وهاشمٍ وكم لهمُ من مثل عَمْرٍو وعامر

وكم قد أقامُوا من عُروش مَوائلٍ وكم قد أَقالوا من جُدودٍ عَواثر

ومن محاسن صنعته قولُه: [بسيط]

جادُوا وصالُوا وصادوا واحتَبوْا فهمُ مُزْن وأُسْد وأَصقار وأَجْبالُ

إن سابقوا سَبقوا أوحاربوا غَلَبوا أو يَمَّمُوا وصلوا أو أمَّلوا نالُوا

وقولُه : [بسيط]

غُزُوا فما اُمتَنعوا صالوا فما انْتفَعُوا كرُّوا فما دَفَعوا فرُّوا فما فاتُوا

---

(١) رياح ، قبيلة : دعاهم العبيديون ، هم وبنى زغبة ، وبنى الأبيج ، وبنى عدن ، وبنى سلم : بنى هلال بن عامر ، إلى النزوح إلى المغرب ليناوئوا الصنهاجيين من بنى المعز . وحين عبر عبد المؤمن إلى الأندلس نفر إليها منهم جمع ضخم . وزاد فيهم أبو يعقوب وأبو يوسف . حتى كثروا هنالك . (انظر المعجب ٢٠٥ ، ٢٢٥ — ٢٢٦) .

الترجمة التاسعة

[الغسانى]

[54 b] الحكيم الأديب المُتفننٌ / عبد المُنعم بن مُظفَّر الغسَّانى الجِلْيَانِىّ .

وقفتُ على ترجمته فى كتاب «الخريدة للعِماد الأصفهانى»(١) و«تاريخ حلب» وفى «تاج المَعاجم» وفى «تاريخ بغداد لابن الدَّبيْثى»(٢) وفى «تاريخ بغداد» أيضاً لابن النَّجار. فلخَّصتُ من جميع ذلك :

(١) هى خريد القصر وجريدة أهل العصر، لأبى عبدالله محمد بن محمد بن أبى الرجاء حامد بن محمد بن عبد الله بن على الكاتب الأصبهانى . الملقب بابن أخى العزيز . ولد سنة ٥١٠ هـ . وكانت وفاته سنة ٥٩٧هـ . وقد طبع منها القسم الخاص بمصر .

(٢) أول من صنف لبغداد تاريخاً هو أحمد بن أبى طاهر البغدادى . وتلاه أبو بكر أحمد بن على المعروف بالخطيب البغدادى المتوفى سنة ٤٦٣ . ثم تلاه أبو سعد عبد الكريم السمعانى صاحب الأنساب والمتوفى سنة ٥٦٢ فذيله . ومن بعده عماد الدين أبو عبد الله محمد المتوفى سنة ٥٩٧ فألف ذيلاً على ذيل ابن السمعانى .

وكذلك ذيله أبوعبد الله محمد بن سعيد المعروف بابن الدبيثى الواسطى المتوفى سنة ٦٣٧ هـ . وذكر ما لم يذكره ابن السمعانى (والدبيثى : نسبة إلى «دبيثا» بفتح أوله وثانيه وياء مثناة من تحت ساكنة وثاء مثلثة مقصورة : من قرى النهروان والنسبة إليها : دبيثاى ودبيثى ، وربما ضم أوله) .

ثم أخذ شمس الدين محمد بن أحمد الحافظ الذهبى المتوفى سنة ٧٤٨ ذيل ابن الدبيثى ولخصه واختصره فى نصفه .

وللحافظ محب الدين محمد بن محمود، المعروف بابن النجار البغدادى، المتوفى سنة ٦٤٣ هـ ذيل عظيم على تاريخ الخطيب نفسه جمع فيه فأوعى أيضاً ، يقال إنه فى ثلاثين مجلداً .

ثم ذيل على ذيل ابن النجار تقى الدين محمد بن رافع المتوفى سنة ٧٧٤ هـ .

أنه وُلِدَ بجليانة[1] من جهات غَرْناطة سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة، واشتغل بالطب والأدب، ورحل إلى المَغرب واشتهر هنالك ذِكرُه، وأقام مدة ببغداد يَمدح ويُخالط الأعيان والفضلاء، ويُطالع كتب الخزائن إلى أن تفنَّن. واستقرَّ بالشام وصار طبيبَ المارستان السُّلطانى فى السَّفر والحضر، أيامَ صلاح الدين بن أيوب وبعده، إلى أن مات بدمشق سنة ثلاث وستمائة.

ومَدح فى أول أمره صلاحَ الدين بمدائحَ مُختصرات، فأعطاه عليها ثلاثمائة دينار مِصرية، فحسده أحدُ الحاضرين / وأظهر استكثارَ [55a] ذلك فى حقّه، فزاده السلطانُ ثلاثمائة دينارٍ أُخرى.

ووقفتُ على ديوان شعره، وأكثرُه مملوء من السّخف والمجُون، من نَمط قوله فى أبى الوَحش، الذى كان يَتطايب فيه مع أصحابه:

[طويل]

إذا جاءنى يوماً نَعىُّ أبى الوَحْش ... وأبصرتُه فوق الرُّءوس على النَّعشِ

(١) جليانة، بالكسر ثم السكون، وياء وألف ونون: حصن بالأندلس من أعمال وادى آش (عن معجم البلدان). وقال ياقوت: «ومنها عبد المنعم بن عمر ابن حسان الشاعر الأديب الطبيب. كان عجيباً فى عمل الأشعار التى تقرأ القطعة الواحدة بعدة قواف. ويستخرج منها الرسائل والكلام الحكمى مكتوباً فى خلال الشعر. وكان يعمل من ذلك دوائر وأشجارا وصوراً. سكن دمشق، وكانت معيشته الطب. لقيته ووقفنى على أشياء مما ذكرته وأنشدنى لنفسه ما لم أضبطه عنه. ومات بدمشق سنة ٦٠٣ هـ».

وعلى الرغم من هذه اللقيا فقد أغفل ياقوت أن يترجم له فى كتابه «إرشاد الأريب» واكتفى بما ذكره عنه هنا فى معجم البلدان.

وقد جَعلوا من نَهر «قلّوط» غُسلَه　　وكُفِّن فى كِرْشٍ وأُلحِد فى حُشٍّ
وظَلَّ لما يَلقّاه من هَوْل مُنْكَرٍ　　وشِدَّةِ ضِيقِ القَبر يَضْرط كالجَحْش
بذلْتُ لصَحْبى زِقَّ خَمْر وقَينةً　　وزخرفتُ دارى بالنَّمارق والفَرش
فإنْ قيل لى ماذا التكرُّم والسَّخا　　أَقُلْ لهمُ ماتَ الوضيعُ أبو الوَحْشِ

وقولُه يخاطب صديقاً له من أهل الجاه بشَيْزَر[١] رغب إليه أبو الوَحْش فى أن يُصحبه نحوه كتاباً :

[منسرح]

أبا الُحسين اُستمعْ مَقال فتًى　　عُوجِل فيما يقولُ فارْتجلاَ
هذا أبُو الوَحْش جاء مُجتدىَ الْ　　قَوْم فنَوِّه به إذا وَصَلا
واتلُ عليهم بحُسن شَرْحك ما　　أتلوه من أَمْر شأنه جُمَلا
وخَبِّر القومَ أنه رجلٌ　　ما أَبصر الناسُ مثلَه رجُلا
/ تَنوب عن وَصْفه شَمائلُه　　لا يَبْتغى عاقلٌ به بَدَلا [55 a]
وهو عَلَى خِفّة به أبدًا　　مُعترف أنَّهُ من الثُّقَلا
يَمُتّ بالثَّلْب والرَّقاعة والسُّ　　خف وأمّا ما سِواه فَلا
إن أنت فاتَحْتَهُ لتَخْبُرَ ما　　يَصْدُرُ عنه فتحتَ مِنْهُ[٢] خَلَا
فَسُمْهُ إن حَلَّ خُطَّة الَخسْف والـ　　هُونِ ورَحِّبْ به إذا قفَلا
وسَقِّه السُّمّ إنْ ظَفِرْتَ به　　وامْزُج له مِنْ لُعابكَ العَسلَا

---

(١) شيزر ، بتقديم الزاى على الراء : قلعة تشتمل على كورة بالشام قرب المعرة، بينها وبين حماة يوم .

(٢) خلا ، بالمد وقصر للشعر : المتوضأ وحيث تقضى الحاجة .

وقوله ، وهو طَيّار بالمشرق : [مخلع البسيط]

يا ساهرًا فى اُقتناء عِلْمٍ ... يخُطبُ منه مقامَ مُحْكَمْ

بدُون هذا ترَى فقيها ... فوسِّع الكُمَّ ثُمَّ عَمِّم

والْبس من الشُّهب طَيْلسانًا ... واُغمِدْه فى المَنْكبين واُختم

واُجلس مع القوم فى جِدالٍ ... لا بالبُخارِى ولا بمُسْلم

إلاّ صِياحًا و نَفْض كُمٍّ ... ونَظْم «لا لا» وقول «لمْ لمْ»

فما أَرى عندهم عُلومًا ... أكثر من «لا» و «لا أُسَلِّم»

واستحسنوا قولَه فى الخمر : [طويل]

وصفراء لولا نَفْحُها ومَذاقُها ... لقلتُ نُضَارٌ فى الأباريقِ ذائبُ

/ من الماء فيها للحَباب عَمائمٌ ... وللنَّور منها فى الأكُفِّ ذَوائب [56 a]

ومن أبياته المُفردة قولُه: [بسيط]

قد يُكْرَمُ الفرْدُ إعجابًا بخِسَّته ... وقد يُهان لفَرْط النَّخوة السَّبُعُ

وذكر العِماد الأَصفهانى أنه صنّف كتابًا سَمَّاه بـ « نهج الوضاعة لأُولى الخلاعة[1] » .

وذكر المؤرّخون أنه كان بمَجلس السلطان صلاح الدين ، فقال له

---

(١) ذكر حاجى خليفة هذا الكتاب « نهج الوضاعة لأُلى الخلاعة » ونسبه لأبى الحكم عبيد الله بن المظفر الباهلى المتوفى سنة ٥٤٩ هـ .

الفاضل البَيْسانى[١]، ليغُضَّ منه بنَسبه :

يا أبا الفضل ، كم بين جِلْيانة وغَرْناطة ؟ فقال : الذى بين بَيْسان والقُدس . فخَجل الفاضل وظَهر ذلك فى وجهه[٢] .

---

(١) انظر الحاشية (رقم ١ ص ٢٦) من هذا الكتاب .

(٢) وانظر ديوان الغسانى الجليانى مصورة الجامعة العربية عن الآستانة . مكتبة أحمد الثالث . كتبت سنة ٨٩٧ ﻫ .

وقطعة منه تنتهى بآخر حرف العين بعنوان : « ديوان الحكم ومعادن الكلم » . مصورة عن المتحف البريطانى .

تراجم سنة أربع وستمائة
ست

من المشارقة :

من العراق :

١ ــ الجمال البغيديدى حسين بن أحمد

٢ ــ أبو محمد جعفر بن محمد الكفرعزى

ومن الشام :

١ ــ البهاء بن الساعاتى الدمشقى أبو الحسن على بن محمد بن رستم

المغاربة :

المغرب الأقصى :

١ ــ أبو الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن

ومن الأندلس :

١ ــ أبو عمران موسى بن عمران المارتلى

٢ ــ أبو الحسن على بن محمد بن خروف القرطبى



الترجمة الأولى

[البغيديدي]

الشاعر الجمال البُغَيْدِيديّ حُسين بن أحمد[1] .

لم أجد ذكره فى تاريخ وإنما أخذتُ ترجمته من الحافظ أبى المحاسن الدمشقى[2] ومن أدباء العراق :

/ هو من بُغَيْدِيد ، قَرية من قرى الحِلّة المشهورة بالعِراق . [56 b]
وأول ما عرفتُ من أمره أَنِّى أول ما سافرتُ إلى بغداد بتُّ ليلة على شاطئ دجلة فى بُستان ، فسمعتُ فى هدوء الليل شخصَين يُغَنِّيان بهذه الأبيات فى أحسن صَوت وأبدع لحن :

(مجزوء الكامل)

بين العَقِيق وحاجِرِ   أفنيتُ ماءَ محَاجِرِى[3]

---

(١) يظهر أن ياقوت فى معجم البلدان أراده — أعنى الجمال البغيديدى — عند الكلام على « بغيديد » حين يقول : « بغيديد ، تصغير بغداد ، فى ثلاثة مواضع ، أحدها من نواحى بغداد فيما أحسب ، كان منها شاعر عصرى يقيم بالحلة المزيدية والنيل وتلك النواحى . كان جيد الهجاء » . ووفاة ياقوت ، كما هو معروف ، كانت سنة ٦٢٦ هـ .

(٢) هو أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن أحمد بن محمود بن أحمد . التكريتى الجد ، الموصلى الأب ، الدمشقى المولد ، الشهير بالحافظ . وكان له مشاركة فى فنون . وكان أديباً شاعراً . وكانت وفاته سنة ٦٧٣ هـ .

(٣) العقيق : هو فى الأصل كل مسيل ماء . قال أبو منصور : وفى بلاد العرب أربعة أعقة ، منها : عقيق المدينة ، وهو المراد هنا ، لذكر « حاجر » معه . وحاجر : موضع قبل معدن النقرة . والنقرة : بطريق مكة ، يجىء المصعد إلى مكة من الحاجر إليه . (انظر معجم البلدان) .

كم لى بذاك المُنْحنَى مِن طِيب عَيْشٍ ناضِرِ
أيامَ أَرتع للصّبا فى كُلّ رَوْضٍ زاهر
وأَرودُ كُلَّ غَضارة للعَيْش غيرَ[١] مُحاذِر
أَحْبابَ قَلْبِي غِبْتُمُ وسَكنتمُ[٢] فى خاطِرى
وجفوتُمُ وخَيالُكم من رَحمةٍ لِىَ زائرى
أُنْسِيتُمُ عهدَ المَشُو قِ المُستهام الذَّاكر
وزَهِدتُمُ وغَفلتُمُ عن ذى غَرامٍ ساهِرِ
كُونوا كما شِئْتُمْ ففيكم قد فَضحتُ سَرائِرى
وعليكمُ اقتصرتْ أوا ئلُ صَبْوتى وأَواخِرى
[57 a] / لا أَوْحش الله الحِمَى مِن كُلِّ ظَبْيٍ نافِرِ
ومن الغُصون المائسا ت وكُلِّ بَدْرٍ سافر
ومِن النّسيم مُعَطَّرًا ومِن الغَمام الباكر

فما فَرَغا من هذه المَقطوعة إلّا وقد كِدْتُ أَخرج عن الوُجود طرَبًا، وبَقيتُ وقد سُرَّ بها خاطرى. ثم جعلتُ أبحث عن قائلها ، فأُخبِرت أنها للجمال البُغَيديدى . وهو صاحب مُقطَّعات فى الغرام والمُجُون

---

(١) أرود : أطلب .

(٢) فى هامش الأصل رواية أخرى، وهى : « وحضرتم » .

والهجاء . وأكثر مَسلكه فى طريقة مَنْصور الفقيه[١] . إذا رَمى بِزَوْجه[٢] قتَل، كقوله فى شخص ثقيل، كان يَزُور بثقيلٍ آخر يُلقَّب بالسِّراج[٣] :

[خفيف]

ما كَفَى الناسَ ما بهم منك حتّى　　صرْتَ تَغشاهُمُ ومعْك السِّراجُ

فإذا زُرْتَ لا تَزُرْ بجَنِيبٍ　　لا يكونُ الطاعونُ والحجّاج

---

(١) هو أبو الحسن منصور بن إسماعيل بن عمر التميمى المصرى الفقيه الشافعى الضرير . أصله من رأس عين بالجزيرة . وأخذ الفقه عن أصحاب الشافعى. وله مصنفات فى المذهب ، وله شعر جيد سائر ؛ ومن شعره :

عاب التفقه قوم لا عقول لهم　　وما عليه إذا عابوه من ضرر

ما ضر شمس الضحى والشمس طالعة　　ألا يرى ضوءها من ليس ذا بصر

وله :

لى حيلة فيمن ينـ　　ـم وليس فى الكذاب حيله

من كان يخلق ما يقو　　ل فحيلتى فيه قليله

وله أيضاً :

الكلب أحسن عشرة　　وهو النهاية فى الخساسه

ممن ينازع فى الريا　　سة قبل أوقات الرياسه

وكانت وفاته سنة ست وثلثمائة بمصر . (انظر طبقات الفقهاء للشيرازى، ووفيات الأعيان) .

(٢) يريد البيتين الاثنين . وأنت ترى فيما أوردنا لمنصور أنه يقتصر على البيتين، وكذلك فعل البغيديدى .

(٣) لا أدرى هل من الإثقال أن أذكر هنا أن السراج الوراق الشاعر المصرى عمر بن محمد ، كان مولده سنة ٦٠٥ هـ وأن وفاته كانت سنة ٦٩٥ هـ .

وقولُه فى شخص نازلٍ يُكْثر من التِّيه ، ولا يتكلَّم أحد فى أدب أو عِلم إلاَ قطع حكايتَه وجعل يحكى :

[سريع]

يا تائهاً يا جاهــلاً يا قاطعاً كُلَّ مَقال جاء مِن قائلِ

[57b] لا يصبرُ الناسُ على كُلِّ ذَا مِن ذِى عَلاءٍ كيف من نازِل

وقال فى شخص رفعه الزمانُ بالاشتغال فى بعض الأعمال السُّلطانية، وكان يُطعن فى نَسبه باليهوديَّة :

[سريع]

يا ناظراً فى عِطفه مُعْجَباً يَبْخل أنْ يَبدأنا بالسَّلامْ

واللهِ لو أصبحتَ من هاشمٍ مِن مَعشرٍ سادُوا الوَرَى فى نِظام

ما فيهمُ بعـــد أبى جَعْفر إلّا إمامٌ وارث يَبْغى إمام

لم نَحْتمل منك الذى جِئْتَه مِن صَلَفٍ يُزْرِى بعَقْل الكِرَام

فكيف والسبتُ غَدا عِيدَكم عُذْرُكمُ أَمسَى علينا حَرَام

وأُنشدتُ له فى طريقة المُجون :

[طويل]

رأيتُ إذا زَيدٌ على ظَهْر أَمْرد فقلتُ له ماذا الذى أنت تَفْعلُ

فقال صغيرٌ ليس يعلم صَنعةً أعلِّمه والأجرُ لى كيف يُدْخِل

وقوله :

[منسرح]

جاء على بَغْـلة يُعظِّمه النَّـــاسُ وقالُوا فتًى وأَىُّ فتَى

فقلتُ مَن ذا ؟ فقيلَ لى رجلٌ   يلُوط لـكنْ يَبُوس مُلْتَفِتا(١)

ومن محاسن نوادره : قولُه يخاطب أحدَ وزراء بغداد :

[بسيط]

/ قُل للوزير أَدام الله دَوْلَتَه   يا أَعْدلَ الناسِ حالِى كيف تَلْتَبِسُ [58 a]

إنَّ الغــلام و بِرْذَوْنى قد اتّفقا   من فَرْط جُوعهما ما فيهما نَفَس

وإن تَصرَّم هذا اليومُ بى فَغَدًا   يَمْشى الغلامُ ولا يَمشى بىَ الفرَس

وذُكر أنه مات فى سنة أربع وستمائة .

ثم تذاكرتُ مع الحافظ أبى المَحاسن الدِّمشقى بعد ذلك فى شأنه فأخبرنى أنه عُمِّر، وانتقل عن المُجون والاستهتار إلى طريقة الفُقراء ، ولزم الزَّوايا والرُّبُط ، وقال :

[خفيف]

أرْعشتْ كَفُّه على الـكأس حينًا   ثم قد أُرعشت على القِنْديلِ

ومَحا مِنْ صَحائف اللَّهو ما أَثْـ   ـبته فى صَحــائف التَّنْزيل

وتذاكرتُ مع العِزّ الغَنوىّ(٢) فيه ، فأخبر أنه ذكره فى كتابه فى «مَن لقيه من الشعراء » فرَوى عنه، وأَنشدنى عنه أبياته التى خاطب بها الوزير ، وقد تقدّمت، وقولَه :

[خفيف]

هو مثلُ السُّلطان فى بَلد النِّيـ   ـلِ وهَـذا عَجْزٌ من السُّلطانِ

قِيل عنه إنسانُ سَوْءٍ فما عا   ينتُ إلاَّ مرأًى بلا إنسان

(١) أى يعطى دبره . (٢) ذكر ابن تغرى بردى واحداً بهذا الاسم فى وفيات سنة (٦٦٠ هـ) فقال : « وفيها توفى الحسن بن محمد بن أحمد بن نجا الشيخ الأديب أبو محمد الغنوى الشافعى الإربلى ، الملقب بالعز » ثم قال : « وكان فاضلا فى العربية والنحو والأدب وعلوم الأوائل » .

الترجمة الثانية

[الكفرعزى]

[58 b] / العالم القاضى أبو محمد جعفر بن(١) محمود الكَفْرَعَزّى . من كَفْر عَزَّى ، من ضياع إربل .

ذَكر عنه مؤرّخ إربل أنه كان إماماً فى الفقه الشافعى ، مُشاركاً فى العلوم الحديثة والقديمة .

ولى قضاء إربل ومات فى سنة أربع وستمائة . وأنشد له :

[وافر]

ولو أنّى كتبتُ بقَدْر شَوْقى ... إليك لضاقَ عن كَتْبى الفَضاء

أُعلِّل فيك رُوحى بالأمانى ... وأَرجو أَنْ يَطول لك البقاء

وتذاكرت مع الشَّرف يَعقوب الإرْبلى فى شأنه ، فأثنى عليه ووصفه بخفّة الروح ولطافة المَنْزِع . وأنشد له :

[مجتث]

أَهْوَاكَ يا بَدْرُ لكنْ ... مَنْ لى بقُرْب البُدورِ

ولى إليك اشتياقٌ ... وكيف أَسْلُو سُرورِى

ما بيننا من وِصَالٍ ... إلّا الذى فى السُّطور

يَطْغَى فيُخْرِجه الشَّو ... قُ مِن خَبايا الصُّدور

(١) فى عنوان التواريخ لابن الساعى : « أبو محمد جعفر بن محمد بن محمود بن هبة الله » . وقد ذكر المؤلف قبل فى وفيات سنة ٦٠٣ هـ من اسمه « جعفر ابن هبة الله الكفرعزى » ، وهما فيما يبدو شخص واحد . ولكن النقل اضطرب على المؤلف .

قال : وكان فى إربل شخص كثير الإلحاح واللَّجاج والمُتابعة ، / فاَتفق له أن استُوزر ، فقال فيه : [59 a]

[مجتث]

قُولوا أَحقًّا سَمِعْنا أم ذاكَ يُخْلَق زُورَا

أَضْحى «النَّصِيبى»[1] مُعيناً فى مُلْكِنا ونَصِيرا

إنْ أَبصرتْه لِحاظى مُشَاوِرًا ومُشيرا

بَدوْلةٍ كانَ هذا يومًا علينا عسيرا

فلا رعَى اللهُ وقتاً قُدِّمت فيه وَزيرا

نموت جُوعاً ولسنا نُلْقِى إليك الأُمورا

قال : وجرى له أن تحاكم عنده شخص جرئ متكلِّم مع شاب كما خُط عِذاره ، فتّان الصُّورة . فجعل القاضى يُقبِل على الشاب . فقال له بما فيه من القِحة: أراك يا قاضى المُسلمين تَميل إلى هذا الصبيّ ولا تلتفت إلىّ!

فقال القاضى : ذاك لأننى أتبيّن مجارى الحق من أثناء كلامه . قال : لا والله ، بل فتنك بألفه ولامه . فحَبسه الحاضرون وهمّوا به . فقال : ما على هذا من جُناح ، أُحملوه إلى المارستان حتى يتطبّب ، فتمد نَشف دماغه . / فحُمل للمارستان وأُنحلت القضيّة . ثم أَطلقه بعد ذلك . [59 b] فكان يلقَّب بالنّاشف . فأضجره الناسُ ، فهرب إلى الموصل .

---

(١) كذا . والنصيبى : نسبة إلى نصيبين : مدينة من بلاد الجزيرة . وسهلت الياء للشعر . وإن صح فلعل المهجو طارئ على إربل من نصيبين .

الترجمة الثالثة

[ابن الساعاتى]

الشاعر المُجيد الشهير المُكثر الجليس البهاء بن الساعاتى الدِّمشقى أبو الحسن على بن محمد بن رُسْتم .

وقفت على ترجمته فى «تاريخ حلب» و «تاج المعاجم»(١) . ووقفت على ديوان شعره فى أربع مجلدات(٢) . وهو مَمْلُوء من المحاسن .

وتلخيص أمره : أنه خُراسانى الأصل، وُلد بدمشق . وكان أبو أُمه يشتغل بالساعات التى على باب الجامع(٣) ، فعُرف به .

قالوا: ولم ينشأ بدمشق فى زمانه أبدعَ منه صُورةً . وبَرع فى صباه خطًّا وشعراً، ولعباً بالشطرنج والنَّرْد ، وفى الفُروسية . فخالطه الكبراء، وهام فيه الجِلَّة، ونادمه المُلوك ، وجالسه السلاطين/ إلى أَن قُدِّم على الجميع(٤)، [60 a] وأُبيح له ضَرب طُبولهم، على عادة أهل المشرق .

وجُلّ مديحه فى السلطان صَلاح الدِّين بن أَيوب، وَبنيه : العزيز(٥)

---

(١) وانظر أيضاً : وفيات الأعيان . وشذرات الذهب.

(٢) الذى ذكره ابن خلكان أنه يدخل فى مجلدين . وهو غير ديوانه الصغير الذى سماه مقطعات النيل . ومنه نسخة خطية بدار الكتب المصرية . وقد طبع بتحقيق الأستاذ أنيس المقدسى .

(٣) الذى فى طبقات الأطباء (٢ : ١٨٤) أن أباه محمد هو صاحب هذه الصناعة .

(٤) فى الأصل : « جمع » .

(٥) انظر الحاشية رقم (١ ص ١٤) من هذا الكتاب .

صاحب مصر ، والأَفضل[١] صاحب دمشق، والظاهر[٢] صاحب حلب .
وله مِدح كثيرة فى نَجم الدين بن مُجاور وَزير العزيز، وقد تقدَّمت ترجمتُه.

ومن المشهور أنه قرأ فى أول أمره على البـديع الأَسطرلابى[٣] بآمِد.[٤] وكان له ألف دينار، فجعلها فى حُبّ ببيت البـديع ولم يُعلمه ، فاُتفق أَن دَخل سَقَّاء وحَمل الُحب فوقع على الذَّهب فأَخذه . وتفقَّده ابنُ الساعاتى فلم يجده . فجزع وشكا ذلك للبديع . فقال البديعُ ما اشتهر، لما تضمّنه من الإحسان وطريف المَقصد :

[بسيط]

يا مَن إذا غاب عنّى لستُ أَنساه ومن أُصافيه وُدِّى حين أَلقاهُ
إنْ كان مالُك ماءِ الُحْبّ أَلّفه كما علمتَ فماء الُحبّ أَفناه

ثم سَعى فى شأنه حتى خَلَّصه من السقّاء .

/ وكانت وفاة ابن الساعاتى بالقاهرة سنة أربع وستمائة . [60 b]

---

(١) هو الأفضل الأيوبى على بن يوسف صلاح الدين بن أيوب . استقل بدمشق بعد وفاة أبيه سنة ٥٨٩ هـ . ونزعه عنها أخوه العزيز وعمه العادل سنة ٥٩٢ هـ . وكانت وفاته سنة ٦٢٢ هـ .

(٢) انظر الحاشية رقم (٣ ص ١٢) من هذا الكتاب .

(٣) هو أبو القاسم هبة الله بن يوسف ، وقيل : أحمد، المنعوت بالبديع الأسطرلابى ، الشاعر المشهور ، وكان وحيد زمانه فى عمل الآلات الفلكية . وكان فى شعره يميل إلى المجون والفكاهة . توفى سنة ٥٣٤ هـ .

والأسطرلاب ، كما ضبطه ابن خلكان ، بفتح الهمزة وسكون السين المهملة وضم الطاء المهملة وبعدها راء ثم لام ألف ثم باء موحدة .

(انظر وفيات الأعيان، وأخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطى) .

(٤) آمد : بلد قديم ، يحيط دجلة بأكثره . (عن معجم البلدان) .

وتصفّحتُ شعرَه فوجدتُه يَجمع بين ألفاظ المَشارقة الرّقيقة، ومعانى المغاربة الدقيقة ؛ فلا يَخلو مِن صَقْل الكلام وغَوْص الفكر . وإذا أردتَ أن تقف على عُنوان ذلك فأَصْغِ إلى قوله من قَصيدة لصلاح الدين ابن أيوب :

[كامل]

هزّ[1] الصَّبا أعطافَه هزَ الصَّبا ... أَعطافَ غُصن البانة الهَيْفاء

ما ضَم صَدْرُ ضُحًى كَطَلْعته ولا ... يَنْشقّ عن ثانيه جَيْبُ سماء

وبمُهجتى الدّانى القريبِ[2] خيالُها ... ومَزارها عنّى البعيد النّائى

وَهَبتْ مَباسِمها الصباحَ وقَبلها ... خَلعت ذَوائبَها على الظَّلْماء

وقفتْ وقُوفَ الدَّمع ثم مشت إلى التّـ ... ـوديع مَشْىَ الوَجْد فى[3] الأَحْشاء

وقوله من قصيدة فى الوزير أبن مُجاور ، وهو مما يُغنَّى به[4] :

[كامل]

عِزُّ الجُفون وذِلّةُ الصَّبْر ... حَكَماَ علىَّ بطاعة الهَجْرِ

ما كنتُ أَعلَم قَبْل كاظمةٍ ... أنّ الوَفاء طَلِيعةُ[5] الغَدْر

---

(١) مطلعها كما فى الديوان المطبوع (١ : ٥٧) :

أحيى بسهم المقلة النجلاء ... فنجاء من نجل العيون نجاء

(٢) فى ديوانه : « خياله » .

(٣) هذه الأبيات من قصيدة عدد أبياتها ستة عشر بيتاً .

(٤) هو نجم الدين يوسف بن المجاور . وانظر الديوان (١ : ٢٠٨) .

(٥) كاظمة : جو على سيف البحر فى طريق البحرين من البصرة ، بينها وبين البصرة مرحلتان . وفيها ركايا كثيرة وماؤها شروب واستسقاؤها ظاهر . وقد أكثر الشعراء من ذكرها . (انظر معجم البلدان) .

لو كنتُ أَسأل بعد⁽¹⁾ وَقْفتنا   عن ذاهبٍ لسألت عن صَبْرى

[61 a] /يا كَعبةً فى الْحسن⁽²⁾ ما نُصِبتْ   إلّا لكَسْب الإثم لا الأَجر

عَلَّمت دَمْعِى السَّعْىَ ثم أخذ   ت الصبر عنك⁽³⁾ بسُنة النَّفْر

لو كنتِ عادلةً على دنفٍ   لمنعتِ ظُلْمَ الرِّدْف⁽⁴⁾ للخَصر

ولمَا⁽⁵⁾ ضربتِ بسيفِ لَحْظك مَعْ   مودًا فباء الْجَفْن بالكسر

لفُتوره وَحْىٌ إلىَّ على   هاروتَ أَنزل سُورةَ⁽⁶⁾ السِّحْر

وبَسَمْتِ مِن دَمْعى ولا عَجَبٌ   للغادِيات تَبَسُّم الزَّهر

ما راعنى فى وَجْنَتيك⁽⁷⁾ ضُحًى   غير اصطلاح الماء والجَمْر

يا ليلةً بالنَّعف⁽⁸⁾ فُزْت بها   ما كنتِ إلَّا ليلةَ القَدْر

أُسْقَى بريقك وهى صافيةٌ   صهباءُ فى قَدَحٍ من الدُّرّ

وحَدَدْتنى باللَّحْظ حين رأيـ   ـتِ الحدَّ يلزم شاربَ الخَمْر

وسوادُ قَلْبِ اللَّيل يَخفِق فيـ   ـه البَرْقُ خوفَ طَلِيعة الفَجْر

حتى بدا وكأن طَلْعته   وَجْه الوزير يهشّ⁽⁹⁾ للسَّفْر

---

(١) فى الديوان : « وقفتها » .

(٢) فى الديوان : « للحسن » .

(٣) فى الديوان المخطوط : « عنه » .

(٤) فى الأصل : « فى الخصر » . وما أثبتنا من الديوان .

(٥) فى الديوان : « ولقد » .

(٦) فى الديوان : « آية » .

(٧) فى الديوان : « بها » .

(٨) النعف : أكثر من موضع .

(٩) فى الديوان : « بالبشر » .

وقوله من قصيدة فى الفاضل البَيْسانى[١]، وهو أفضل مما يُغنَّى فيه :

[كامل]

لَهْفى[٢] على غُصْنِ النَّقَى المُتمايِلِ ... يَهْتزُّ مُعْتدلاً وليس بعادِلِ

[61 b] /لا يستبين[٣] مُنازلاً عُشَّاقه ... بفتُور لَحْظ كالقَضاء النّازل

فشِعَارُه مِن فارس ونجارُه ... من عامرٍ ولحاظُه مِن بابل

يا قَلْبَ عاشِقه وأَسْهم[٤] لَحْظه ... مَن أَلْزم المَقْتُولَ حُبَّ القاتل

يَلْقاكَ مِن لَدْن القوامِ برامِحٍ ... ويصُول مِن هُدْب الجفون بنابِلِ

كالبَدْرِ يَسْرِى فى نُجومِ قلائِدٍ ... وظلامِ أَصْداغ وسُحْب غَلائل

ماجال دَمْعِى بعد طُول جُموده ... إلَّا عَلَى ذاكَ الوِشاح الجائِلِ

وقولُه من قصيدة ، وهو مما يُغَنَّى به :

[طويل]

فُؤادى[٥] وفَوْدِى بعد لَمْياءَ أَشْيَبُ ... وقلبِى على جَمْر الغَضَى يَتقلَّبُ

إذا ماسَ غُصْنٌ قلتُ قَدٌّ مُهَفْهف ... وإنْ لاح بَرْقٌ قلتُ كفٌّ مُخَضَّب

فلا تُنْكِرا ذِكْرَ العُذَيبِ وبارقٍ ... فإِنِّى بثَغْر المالكيّة[٦] أَنْسُب

---

(١) انظر الحاشية (رقم ١ ص ٢٦) من هذا الكتاب .

(٢) انظر الديوان (٢ : ٢٥) .

(٣) فى الديوان : « لا يستفيق » .

(٤) فى الديوان : « وسهم جفونه » .

(٥) القصيدة فى مدح العادل. انظر الديوان (١ : ١١٧)

(٦) العذيب : ماء بينه وبين القادسية أربعة أميال . وبارق : ماء بالعراق ، وهو الحد بين القادسية والبصرة .

أغار على القُرْطين خيفَة حَبِّها . أَلَست تَراها مِثْلَ قَلبى تُعَذَّب

وأُنْــكِر من تلك الغَدائرِ أَنَّهــا

إِذا أُرْسلت ظلّت مع الشَّعر(١) تَلْعب

ومن أبياته المفردة الواقعة فى أشعار السَّماع قولُه :

[كامل]

لو لم يَكُن هاروتُ ساحر(٢) قُرْطها

ماكان فى ذاك الفَضَــاء يُعَلَّقُ

وقولُه :

[خفيف]

/قال سَعْدٌ وقد رَأَى فَيْض(٣) دَمْعِى ليت شِعْرى ما حدَّثَتْه البُروقُ [62 a]

ومن« كنوز المعانى» قولُه :

[كامل]

لا تعجبَنّ لطالبٍ بَلغ المُنَى كهلًا وأَخْفق فى الزّمان الأَولِ

فالخَمْر تَحكم فى العُقول مُسِنّة وتُدَاس أولَ عَصْرها بالأَرْجُل

---

(١) فى الديوان :

* متى أرسلت ظلت مع الحجل تلعب *

(٢) فى الديوان (١ : ٨٩) : « لامع » .

(٣) فى الديوان (١ : ٢٧٧) :

* قال سعد لما رأى فيض جفنى *

والبيت من قصيدة فى مدح الوزير صفى الدين .

وقولُه :

[كامل]

كادتْ تَطِير من الزُّجاج وإنّما صاغ المِزَاجِ لها خَفِيَّ شِباكِ(١)

وقوله فى النهر :

[كامل]

صَدَأُ الظِّلال يَزِيد رَوْنَقَ حُسْنه أرأيتَ سيفاً قط يُصْقَل بالصَّدَا(٢)

وقوله :

[كامل]

والطيرُ تقرأُ والغَدِيرُ صَحِيفةٌ والرِّيح تَكْتُبُ والغَمَامة تَنْقُطُ(٣)

وهو من أَوْلع الناس بالتَّلفيق، وجَمْع ما يقف عليه مُتفرقاً، كقوله:

[كامل]

قُمْ(٤) يانَدِيمُ إلى مُباشرة الوَغَى فالحربُ قائمةٌ ونحن هُجُودُ
القَطْر نَبْل والغَدِيرُ سَوابغ والبرقُ بِيض والغمام يَقود

[62 b] وقوله ، وكان أبو الفَضل التِّيفاشى(٥) يقول : لم يَطْرُق / سَمعى

(١) القصيدة فى تهنئة العزيز . انظر الديوان : (١ : ١٠٥)
(٢) وقبل هذا البيت فى الديوان (١ : ١٠١)

سلفت سهام المزن فى هضباتها فكأن جدولها حسام جردا
يمضى فيغمد فى الغدير نباته فلأجل ذلك لا يزال مزردا

(٣) انظر الديوان (٢ : ٤) .
(٤) انظر الديوان (٢ : ٧)
(٥) هو القاضى أبو الفضل أحمد بن أبى يعقوب التيفاشى . ممن أجازهم ابن سعيد ليرووا عنه كتابه المغرب. وقد نقل المقرى (٣ : ٩٧ — ٩٨) : « وجد بخطه رحمه الله تعالى — أى خط ابن سعيد — آخر الجزء من كتاب المغرب ما نصه : =

فى مَنْزعه أحسنُ منه :

[كامل]

يا حبّذا (١) ذاكَ الزَّمان وطِيبُه   والحادثاتُ عن السُّرور نِيامُ
ومواقف بالنَّيْرَبَيْن (٢) شهدتُها   والعيشُ غَضٌّ والزَّمان غلام
جُمِد المُدام بهنَّ فهو فواكِهٌ   تُجْنَى وذابَ التِّبْر فهو مُدَام
فى جَنة (٣) جُليت فنقَّطها الحَيَا   بعُقود دُرّ خانهنّ نِظَام
كَمُلت (٤) فنَرْجسها المُضَاعف أعيُن   والوَرْد خَدٌّ والقَضِيب قِوام

وقوله (٥) :

[كامل]

لله يَوْمُ النَّيْرَبَيْن ووَجْهُـــه   طَلق وثغر اللَّهو ثَغْرٌ أَشْنَبُ
وكأنمـــا فَنَن الأراكة مِنْبَر   وهزَارها فوق الذُّؤابة يَخْطُب
والرَّعْد يَشْدو والحَيَا يَسْقِي وغُصْـ   نُ البانِ يَرْقُص والخمائل تَشْرَب

= أجزت الشيخ القاضى الأجل أبا الفضل أحمد ابن الشيخ القاضى أبى يعقوب التيفاشى أن يروى عنى مصنفى هذا، وهو المغرب فى محاسن أهل المغرب. ويرويه من شاء ثقة بفهمه واستنامة إلى علمه » .

(١) هذه الأبيات فى تشوقه إلى دمشق، قالها وهو بمصر . والمقطوعة هنا وإن كانت تعادل فى العدد مقطوعة الديوان إلا أنها هنا تنفرد بهذا البيت. وجاء بدله فى الديوان :

والدوح يرقص والبروق بجوها   مثل الصوارم فى الرقاق تشام

(٢) النيربان ، بلفظ التثنية ، هى النيرب ، بالإفراد : قرية بدمشق .

(٣) فى الديوان : « مخطوبة » .

(٤) فى الديوان : « سفرت » .

(٥) فى الديوان (٢ : ١٦٨) : « وحضر بستاناً فى النيرب مع جماعة على شراب وعندهم سقاة كالشموس وجاء مطر كثير ورعد وبرق، فسألوه أن يسم ذلك اليوم بشيء. فقال بديهاً » .

وكأنما السّاقى يطوفُ[١] وكأسُه بدرُ الدُّجى فى الكفّ منه كوكب

بِكْرٌ بها نقعُ الغَليل ومُعْجِبٌ نقعُ الغَليل بجَذْوة تتلهَّب

والقَطْر نِيلٌ والغدير سوابغٌ مَوضونة[٢] والبرقُ سَيفٌ مُذْهب

ومن أحسن ما وقع له فى التَّعليل قولُه فى المَدح :

[بسيط]

تَخْشَى الفَلا أبدًا غاراتِه فلذا قَلْبُ السَّراب على حافاتها يَجِبُ

[63 a] / وعَهدى بأبى المَحاسن الدِّمشقى الحافظ يَهتزُّ طَربًا إذا أُنشد قوله فى غُلام تعلو وجهَهُ صُفْرة شفقيَّة[٣] :

[خفيف]

وبرُوحِى مَن وجهُه شَفَقىٌّ الْـ لَونِ كالشَّمس رُوِّعت بالفِراقِ

لا لداءٍ لكنَّه غُمَّ وجدًا لم يَدَعْ غيرَ هائمٍ مُشْتاقِ

راق ماءُ الجمال فى وَجْنَتَيه فهو مرآة أَوْجُه العُشَّاق

ومن مَعانيه المُستحسنة قوله :

[بسيط]

لا تيأسَنْ مِن أخٍ ولَّى بجانبِه وإن بدا لك منه سُوء أخلاقِ

إنّ السماء تُرجَّى[٤] وهى نازحةٌ إذا ألحَّت بإرعادٍ وإبْراقِ

وقولُه :

[خفيف]

لا تَخَلْ أنّ كُلَّ ضِحْك سُرورٌ رُبَّما كان مُؤْذِنًا بالبُكاء

---

(١) فى الديوان : « بكأسه » .

(٢) موضونة : منسوجة بالدر والجواهر بعضها مداخل فى بعض .

(٣) انظر الديوان (٢ : ١٥٢) .

(٤) فى الديوان (١ : ١٣٧) : « لترجى » .

فطويلًا أبكى جفونَ الغوادى ضَحِكُ البرْق فى مُتون(١) السماء

ويُستملح قولُه فى سوداء :

[خفيف]

زعموا أننى بجهلٍ(٢) تعشقْتُ سَوْداء دُون بيضِ الغوانِى

ليس مَعنى الجمال فيك بخافٍ إنما أنتِ خالُ خَدِّ الزَّمان

/ وقال فى مَنزل السعيد بن سناء الملك(٣) ، وقد تأنّق فى بنائه : [63 b]

[مجزوء الكامل]

يا منزلَ(٤) القاضى السَّعيد حَبوْتنى(٥) عِيًّا ولكنّه

ما أنت إلا جنّة إن كان فى الآفاق جَنَّه

حاكيتَ شَكْلَ(٦) كليلة فمتى يُرى كأخيه دِمْنه

وله نوادر كثيرة فى رجل كبير الأنف يلقّب بالسَّديد ، منها قولُه :

[مجزوء الكامل]

ما ضاقتِ الدُّنيا علىّ وقد حَوت أَنْفَ السَّديد(٧)

ويُستحسن قولُه فى الباذنجان :

[سريع]

يا مُهْدِى الإبذَنْج أهلًا بما أَهْديتَ لى إذ لم تَزل مُنْعِماً

---

(١) فى الديوان (١ : ١١٥) : « بطون » .

(٢) فى الديوان (٢ : ٢٩٢) : « بجهلى » .

(٣) فى الديوان (٢ : ٣٩) : « وقال فى مقعد القاضى السعيد بن سناء الملك » .

(٤) فى الديوان : « يا مقعد » .

(٥) فى الديوان : « منحتنى » .

(٦) فى الديوان : « حاكت كتاب » . وقبل هذا البيت :

صور تخف بأسطر أمثالها فى الحسن فتنه

(٧) قبله : فى الديوان (١ : ٢٣٣) :

يا مانعى صفو الوصال ومانحى كدر الصدود

أقمَاع « كِيمُخْتٍ »[١] على أُكْرة　　من أَدَمٍ قد حُشِيَتْ سِمْسما

وقولُه[٢] :

[كامل]

أو ما تَرى الأطْيارَ فى أَشجارها　　كمُغرِّد قد دَبّ فيه شَرابُ

وكأنّ مُعتلَّ النَّسيم تحيّـةٌ　　وكأنما أغصانُهـا أَحْباب

وقولُه[٣] :

[متقارب]

وأشجار مَوْز نَزَلْنا بِهاَ　　فيا شَكَر اللهُ أَلْطافَهاَ

[64 a] / حلا طَعْمُها ونما عَرْفُها　　لمن ذاقَها[٤] ومن[٥] اُستافها

فمن كان ضَيَّع أَضيافَه　　فليستْ تُضَيِّع أضيافَها

كخُضُر البُنود إذا نُشِّرت　　وجاذبتِ الرِّيحُ أعطافهـا

وإلّا قُدود عَذارَى رَقَصْن　　فظلّت تُناقِل أَسْيافهـا

فلو كنتُ فى غير قَيْد[٦] النُّهى　　لقُمْتُ فقبَّلتُ أطرافهـا

وقولُه :

[كامل]

ولقد نَزلتُ[٧] بِرَوْضةٍ حَزَنيَّةٍ　　رَتعتْ نَواظِرُنا بها والأنْفُسُ

فظَلِلْتُ أعجبُ حيث يَحْلِفُ صاحِبى　　والمِسْكُ من نفحاتها يتنفَّس

ما الجوّ إلا عَنْبر والدَّوْح إلّـ　　ـا جَوْهرٌ والرَّوْض إلا سُنْدس

---

(١) كيمخت (Kimukht) : لفظة فارسية بمعنى الجلد المتغضن .

(٢) انظر الديوان (٢ : ٢٦٤) .

(٣) انظر الديوان (٢ : ١٨٦) .

(٤) فى الديوان : « لذائقها » .　　(٥) استافها : شمها .

(٦) فى الديوان : « فى قيد غير » .

(٧) فى الأصل : « نظرت » . وما أثبتنا من الديوان (٢ : ١٦٤) .

سَفرتْ شقائقُها فَهمّ الأُقْحوا ن بلَثْمها فَرَنا إليـه النَّرْجس
فكأنّ ذا خدٌّ وذا ثَغر[١] يُحا وله وذا أبدًا عُيونٌ تحْرُس

وقولُه مما يُكتب على سَيف[٢] :

[كامل]

سِرْ بى ولا تخَفِ المُقاتِلَ واثقاً بالله إنّ العار عَينُ المَقْتل
أنا بارقٌ حيث الدِّماء سحائبٌ أُهدى[٣] المنيَّة فى ظَلام القَسْطَل
أَظْمَى وبِى نَقْعُ الغَليل وغيرُ مَا عَجبٍ إذا نُقِع الغَليل بجَدْول

/ ومن مَحاسنه التى يُحتاج إليها قولُه من قصيدة — وقد أُرجف[٤] [64 b]
بصلاح الدِّين بن أيُّوب فيما انتابه — مُشيراً بعافيته :

[بسيط]

لك البقاءُ وللأعداء ما زَعَموا وبالخَلائِق جَمْعاً لا بِكَ الأَلَمُ
ما ضَرّ مجدَك ماقالُوا وما أَفكوا ولا مَعاليك ماشادُوا وما هَدموا
وافَى كتابُك والآمالُ قاعدةٌ وَهْماً فقامت إلى تَقْبيله الهِمَم
ما كان إلّا النَّدى فى كُلّ واجبة أو العَظائم فى الآفاق تُقْتَسم
يُطْوى ويُستَر صَوْناً ثم نَنْشره كالشمس تُسْفِر أحياناً وتَلْتثِم

وقال فى الجارية التى رَقَمت فى خدّها بالمسك حيَّة وعَقْرباً ، فأمر

---

(١) كذا فى الديوان المخطوط بدار الكتب المصرية . والذى فى الأصل والديوان المطبوع : « فكأن ذا تغر وذا خد »

(٢) انظر الديوان (٢ : ١٥٣) .

(٣) فى الديوان : « يهدى » .

(٤) الإرجاف : الخوض فى الأخبار السيئة .

المَلكُ العزيز الشُّعراءَ بالقول فيها :

[كامل]

يا ضَرَّةَ القَمَرَيْن فى شَرَفَيْهما — من أىِّ شَىءٍ منكِ لم أَتعجَّبِ
أَقْبلتِ مثلَ الشَّمس فى غَسق الدُّجى — وحَمَلْتِ برقاً ضاحكاً عن كَوْكب
كتبتْ بخدَّيها[١] المَواشطُ فِتْنةً — عَمَّت عُمومَ هَواكِ مَن لم يَكْتب
جاء الكَليم بآيةٍ من حيَّـــةٍ — وأَراكِ[٢] جئتِ بحيّـة وبعَقْرب

وكتب إلى الملك العزيز، وقد شَرب دواء، قصيدةً منها:

[متقارب]

[65a] /وعُرِّفْت غِبْطة هـذا الدوا — ء من كُل مُؤْلمة فى[٣] الجنان
فبُرْؤك صِحة جِسْم الوُجود — نَعَمْ واُعتدالُ مِزَاج الزمان

ومن مُستحسن مدحه الذى يُتمثّل به :

[كامل]

واهًا لسَعْيك فى بُلوغ مقاصد الْ — عافِى وبِشْرك فى وُجوه القُصَّدِ
طَلبوا عُلاَكَ بأنفس ما عُوِّدت — حُبَّ الثَّناء ولا اكتساب السُّودَد

---

(١) فى الديوان (٢ : ٦٦) : « بخديك » .
(٢) فى الديوان : « ولذاك » .
(٣) كذا بالأصل . ولم يرد البيتان فى الديوان .

الترجمة الرابعة

[أبو الربيع]

السيد أبو الربيع سُليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن . والده أكبر[١] إخوته . وهو الذى حاصر مدينة تُونس[٢] ، وغَضّ منه أخواه أبو يعقوب[٣] وأبو حَفص[٤] بعد وفاة أبيهم. فزعموا أنهما دسَّا إليه جارية جميلة سمَّته فى خِرْقة الجماع. وكان حينئذ والياً على بِجاية. وولى ابنه هذا الإقليم فأخرجه منه علىُّ المَيُورقى[٥] وتنقّل فى الولايات، كبَلَنْسية وسِجِلْماسة . وحيثما كانت ولايته اُجتمع إليه أهلُ الأدب واُشتهر مكانه . فقد كان متميزاً فى قومه ، عَالماً فيهم بهذا الشأن . وقد اشتهر اُختصاره [65 b] للأغانى . وديوانُ شعره مجموع بأيدى الناس[٦] .

ومن الحكاياتِ النَّبيلة أنه كان بمرّاكش تحت جَفْوة من المَنصور. فاتفق أن وَفد على الحضرة وفدٌ من الشام اُنتهى إلى ظاهر مَرَّاكش ،

---

(١) ساق المراكشى فى المعجب أولاد عبد المؤمن ستة عشر ذكراً ، وأشار إلى أن محمداً هو أكبر ولده ، لا عبد الله ، كما قال ابن سعيد .

(٢) يشير إلى حصار عبد الله تونس سنة ٥٥٣ هـ . ثم رجوعه عنها . (انظر المعجب ص ٢٢٨) .

(٣) هو أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن . وقد سبقت ترجمته فى الحاشية (رقم ٦ ص ٩٩) من هذا الكتاب .

(٤) هو أبو حفص عمر بن عبد المؤمن ، أمه ، وأم أخيه أبى يعقوب يوسف ، زينب بنت موسى الضرير .

(٥) هو على بن إسحاق بن غانية ، استخلص بجاية من أبى الربيع . ثم استردها يعقوب .

(٦) ذكر الأستاذ محمد المنونى فى كتابه «العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين» (ص ١٦٢) أنه وقعت له نسخة من هذا الديوان .

وعيّن لهم الدخول فى غداة اليوم الثانى . فكتب أبو الرَّبيع للمنصور[١] :

[كامل]

يا كَعْبةَ الُجودِ التى حَجَّت لها عربُ الشَّآم وعُرْبُها والدَّيْلَمُ

طُوبَى لمن أَمْسىَ يلوذ بها غداً ويطوفُ[٢] بالبَيْتِ العَتيق ويُحْرِم

ومِن العَجائب أنْ يفوزَ بنَظْرةٍ مَنْ بالشآم ومن بمكة يُحْرَم

فاستحسن المنصورُ مقصدَه وأظهر الرضَى عنه ، وأمره أن يكون هو الخارج للقائهم والداخل بهم عليه .

وذكره الشَّقُندى فى مُعجمه فأطنب فى الثناء عليه ، وقال : هو من مَفاخر بنى عبد المؤمن . وأَحلَّه منهم مَحلّ ابن المُعتز[٣] من بنى العباس ، وابن المُعِزّ[٤] ، من العَبيديّين ، وقال : كان / قديراً على النظم ، حافظاً [66a] للآداب ، جواداً لمن يتعلّق بأدنى سَبب يجب رَعْيه . وخَبرتُه فوجدتُه يجود فى أكثر الأوقات بما لا يساعد عليه الزمان .

قال : ولقد قلتُ له يوماً : يا سيدنا ، تُكلِّفون أنفسكم ما لا يساعد عليه الوقت . فضَحك وقال : إنَّا نُغالب الزمان فيما نتكلّف ، ونرجو من فَضل الله ألّا يَغْلِبَنا .

---

(١) هو أبو يوسف ، وكان ابن عمه . وقد مرت ترجمته فى الحاشية (رقم ١ ص ٣) من هذا الكتاب .

(٢) فى نفح الطيب (٤ : ١٠٥) : « يطوف بها غداً * ويحل »

(٣) هو الشاعر المبدع عبد الله بن محمد المعتز بالله بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد . وله ديوان . ولد سنة ٢٤٧ هـ وكانت وفاته سنة ٢٩٦ هـ .

(٤) هو تميم بن المعز بن المنصور بن القائم بن المهدى الفاطمى . ولد سنة ٣٣٧ هـ . وتوفى سنة ٣٧٤ هـ .

وأذكر أنه شُفع له فى شَخص مليح الكلام . فولّاه وأحسن إليه . فأتى بالقبائح . فذكر أمره وأنا حاضر ، ثم قال فيه :

[سريع]

لا تَصْنَع المَعْروفَ إلَّا لمنْ رأيتَه أهلًا لشُكْر الصَّنِيعْ
كم منْ شَريف القَوْلِ قد غرَّنِى بقَوْلِه والفعلُ منه وَضِيعْ
ولم أكن أغلط فى مِثْله لكن رَمتْنى ثِقَتِى بالشَّفيع

قال : وكان مُولعاً بالألغاز . ومن محاسن ما له فى هذا الباب قولُه فى القلم والدواة :

[طويل]

ومَيْتٍ برَمس طُعْمه عند رأسه فإن ذاق مِن ذاك الطَّعام تَكلَّمَا
/ يَموتُ فيحيا ثم يَفْرُغ زادُه فيَرْجع للقَبْر الذى فيه تُيِّما [66b]
فلا هو حَىّ يستحقّ كرامةً ولا هو مَيْت يَسْتحق تَرَحُّما

وقوله فى الصابون :

[وافر]

وأَسمرَ يَصْرِف السُّودانَ بيضاً ويَخْشَى الشّمسَ أنْ تَعْدو علَيْهِ
له فى صُنعه سرٌّ مَلِيح وكُل النَّاس مُحتاجٌ إليه

وقوله فى العَيْن :

[وافر]

وطائرةٍ تَطِير بلا جَناحٍ تَفُوت الطَّائرِينَ وما تطِيرُ
إذا ما مَسّها الحجر اُطمأنّت وتألَمَ أن يُلامِسَها الحرِير

قال : وَصحبتُه مرةً فى سَفر ، فجلسنا ليلًا على نَهر ، وقد تشكّل فيه القمر والنجوم ، فقال :

[متقارب]

وما سابقٌ لا يُرى صاعِدًا ... تُراه إذا ما أُستقام انحدرْ
له مِنْك رُبْعٌ ومنه الحياةُ ... وذلك حَظٌّ جَميع البَشَر
إذا ما جَلَسْتَ له ليـــلةً ... حَـكَى لك أَنْجمها والقَمر

وله فى جارية أسمها ألوفة[١] :

[طويل]

خَلِيلىّ قُولَا أين قَلْبِي ومَنْ به ... وكيف بَقَاءُ المَرْءِ من بعد قَلْبه
[66a] /فإن شِئْتُما إظهارَ سِرٍّ كتمتُه ... فقد بان فى أَمْرِى لكم بعد[٢] قَلْبه

ومن مشهور غزله :

[طويل]

أَقولُ لركبٍ أَدْلَجَوا بسُحَيْرةٍ ... قِفُوا ساعةً حتى أَزُورَ رِكابَها
وأملأَ عَيْنى من محاسنِ وَجهها ... وأشْكُو إليها أنْ أطالت عِتَابَها
فإن هى جادتْ بالوصال وأَنْعمت ... وإلّا فحسبى أن رأيتُ قِبابَها
فقبَّلْتُها[٣] فوق اللِّثام فقال لى ... هى الخَمر أُرْشفْت الغَداةَ حَبابها

وكانت وفاته سنة أربع وستمائة[٤] .

---

(١) فى النفح : « ألوف » .

(٢) رواية النفح ، وهى أحق :

ولو شئتما اسم الذى قد هويته ... لصحفتما أمرى لكم بعد قلبه

يريد أمره لهما فى قوله « قولا » فقلبه « ألوق » وهو بعد التصحيف « ألوف ». وهو اسم من يحبها .

(٣) لم يرد هذا البيت فى النفح .

(٤) لم يذكر المقرى عام وفاته . وإنما اجتزأ بأن قال : « ومات بعد الستمائة » . وفى جذوة الاقتباس (ص ٣١٩) أن وفاته كانت سنة ٦١٠ هـ . وذكره ابن سعيد فى « الرايات » فى المائة السادسة .

الترجمة الخامسة

[المارتلي]

الفقيه الزاهد أبو عِمران مُوسى بن عِمْران المارتلي[١] . وقفت على ترجمته في « معجم الشَّقندي » و « معجم والدي » . وتلخيصها : أنه من مارتله[٢] ، المعقل المشهور على وادي « آنَة » من عمل « باجَة » من الأندلس .

وسكن إشبيلية ، واشتهر بالزُّهد والانقطاع حتى كان في ذلك

---

(١) قال الحميري في كتابه « صفة جزيرة الأندلس » عند الكلام على « مارتلة » : « منها الزاهد موسى بن عمران المارتلي ، اشتهر بإشبيلية بالصلاح وله شعر مدون منقول ... ولما جاز المنصور الموحدي البحر إلى الجهاد عامه الأول ، زاره ثم وجه إليه مالاً . فقال للرسول : هو أحوج في ماله . قل له : هذه مائة من حلال خذها لنفقتك في هذه الغزوة. إني أرجو إن لم تطعم إلا الحلال أن تنتصر » .
(وانظر المغرب لابن سعيد — والتكملة لابن الأبار — والمقتضب من تحفة القادم) .

(٢) ذكر الحميري « مارتلة » ثم قال : إنها على نهر بطليوس بجزيرة الأندلس . واستطرد فذكر أن منها موسى بن عمران . وساق بعض خبره كما قدمنا في الحاشية السابقة .

ثم ذكر بعد ذلك مدينة أخرى سماها : ميرتلة « mérotola » تتفق وتعريف المؤلف لها هنا من أنها على وادي «آنة» وأنها من عمل باجة ، التي بينها وبين قرطبة مائة فرسخ . وظاهر أنهما شيء واحد . ورسم الكلمة في مخطوط المقتضب من تحفة القادم لابن الأبار يقرب شقة الخلاف ، فهي فيه : « يعرف بالميرتلي وأصله من ثغر ميرتلة » بالياء في المرتين . وكذلك هي في ابن الأبار ، أما رسمها في « المغرب » و « النفح » (٤١ : ٢١٠) فبالألف كما هي هنا .

[67b] واحدَ وقته ، يزوره المُلوك ويتبرّكون به ويَستوهبون دعاءه / إلى أن كانت وفاته بإشبيلية سنة أربع وستمائة[1] .

وله نظم ونثر فى النَّصائح والزُّهد ، وذلك مُدوَّن مَشهور بأيدى الناس . وعُنوان ما ذُكر قولُه ، وكان ملتزماً لما نَصح به ، وفيه :

[مجزوء الكامل]

أَسْمع أُخَىَّ نَصيحتى ... فالنُّصح من مَحْض الدِّيانَهْ

لا تَقْرُبنّ[2] من الشها ... دة والوَساطة والأَمانَه

تَسْلم مِنَ اُن تُعْزَى لِزُو ... رٍ أو فُضولٍ أو خِيانه

وقوله :

[سريع]

يا راغباً فى أن يُرى شاهداً ... وحُكْمه بين الوَرى ماضِى

إيّاكَ فالعِزُّ خلافٌ لها ... أوّل ما تَخضع للقاضى

مُعرِّضاً وَجْهك فى كُل ما ... يومٍ لإقبالٍ وإعْراض

كُن مُستريحاً فى الوَرى سارحاً ... بكُل عيش نِلْتَه راَضى

منفردًا لا تُفْكرنْ بالذى ... يأتى ولا تَبْك على ماضى

وقوله :

[متقارب]

إلى كم أقولُ ولا أَفعلُ ... وكم ذا أحُوم ولا أَنْزلُ

---

(١) ذكر الحميرى أن وفاته كانت سنة ٥٩١ هـ .

(٢) فى المغرب : « إلى » .

/ وأزجُر عينى فلا تَرْعوِى وأنصح نَفْسى فلا تَقْبل [68a]

وكم ذا تعلّل لِى وَيْحهـا بَعلّ وسوف وكم تَمْطُل

وكم ذا أؤمّل طُول البَقـاء وأَغْفُل والموتُ لا يَغْفـل

وفى كُل يوم يُنادى بنا مُنادِى الرّحيل ألا فارْحَلوا

أمن بعد سَبْعين أرجو البَقـا وسَبْع أتتْ بعدها تُعْجـل

كأنْ بى وشيكاً إلى مَصْرعى يُساق بنَعشى ولا أُمْهـل

فيا ليت شعرىَ بعد السُّؤال وطُول المُقام لمـا أُنقل

وكان لا يَقبل من أحد شيئاً ، وإنما كان له ما يقوم به من مِلْك وَرِثه من جهة طيبة . وكان مع ذلك يَعمل الُخُوص بيده فى خَلوته ويَبيعه ويتصدّق منه ، لأنه كان يرى كراهيةَ البطالة عن شُغلٍ لمثله . رحمة الله عليه .

الترجمة السادسة

[ابن خروف]

الشاعر المُحسن الشهير أبو الحسن علىّ بن محمد بن خَرُوف القُرْطبىّ.

[68 b] وقفت على ترجمته فى « تاريخ حلب » و « تاج المعاجم » / وفى « زاد المسافر لأبى البحر »(١) . وتلقيتُ بعضَها من الحافظ الدمشقى وغيره من أدباء الشام ، إذ ذِكْره هنالك مشهور ، وهو إلى الآن على الألسن يَدُور .

أصله من القَيْذاف(٢) ، الحِصْن المُضاف إلى أعمال غَرناطة ، وهو بين قُرطبة وبينها .

ونشأ أبو الحسن فى قُرطبة ورَحل قبل أن يعظُم اُشتهار ذِكْره إلى المشرق ، فطبّق ذِكْره هنالك الآفاق ، وامتلأت بمحاسنه مَسامع الشام والعراق ، واُستقرّ فى آخر أمره بحلب . وقال : [مجزوء الوافر]

حَلَبْتُ الدَّهْرَ أَشْطُرَه وفى حَلَبٍ صَفَا حَلَبِى(٣)

---

(١) سبقت ترجمته فى الحاشية (رقم ١ ص ٣٨) من هذا الكتاب . وانظر ابن خلكان، وبغية الوعاة، والفوات ،ومعجم الأدباء، والمغرب ، فقد ترجمت أيضاً لابن خروف .

(٢) ضبطها المقرى فى النفح (٣ : ٣٩٦) بالعبارة فقال : « والقيذاف ، بقاف ثم ياء آخر الحروف بعدها ذال معجمة ثم ألف وفاء » .

(٣) رابع أربعة أبيات بعث بها إلى بهاء الدين بن شداد بحلب يطلب منه فروة . والثلاثة التى قبله :

بهاء الدين والدنيـــا ونور المجـــد والحسب
طلبت مخـــافة الأنوا ء من جدواك جلد أبى
وفضـــلك عالم أنى خروف بـــارع الأدب

وقال الصاحبُ كمال الدين بن العَدِيم : كان يتردّد بين حَلب والموصل ، يمدح الظاهرَ بن صلاح الدين[1] . ومدح نور الدين أَرْسلان شاه[2] ، إلى أن حَضر مرةً بدار العَدْل فى حَلَب عند الملك الظاهر فى إحدى ليالى شهر رمضان من سنة أربع وستمائة ، وتاج العُلَا الشَّريف يَعظه ، فأطال على عادته ، وكان ابنُ خَروف قد أتى بقَصيدة فى مَدح الظاهر أولها :

[بسيط]

/ شَمْسُ الهداية فى أبناء أَيُّوبِ ... أُختُ النُّبوة فى أَبناء يَعقوبِ [69a]

همُ الملائكُ فى زِىّ المُلوك وهُم ... أُسْد الحرُوب وأقطابُ المَحاريب

ثم خرج ليُريق الماء فى الظُّلمة فوقع فى جُب طَامٍ كان هنالك ، وهو جارٍ ، فمات فيه ، وأُطْلع منه ، والقصيدةُ قد ضَمّ عليها يده . فأمر الظاهر أن تُجعل صِلةُ القصيدة فى تجهيزه إلى قبره والصَّدقة عنه .

= (انظر النفح ٣ : ٣٩٦)

وقد أورد المقرى الأبيات مرة أخرى فى الجزء الخامس (ص ١٤) ثم قال : « وبعد كتبى لما ذكر خشيت أن يكون لابن خروف المشرق لا الأندلسى . والله تعالى أعلم » .

(١) انظر الحاشية (رقم ٣ ص ١٦) من هذا الكتاب .

(٢) هو أبو الحارث الملك العادل أرسلان شاه بن مسعود بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكى بن آق سنر صاحب الموصل ، الملقب نور الدين ، المتوفى سنة ٦٠٧ هـ .

ثم إنّ ابن السُّنَيْنيرة[١] الشاعر [جاء][٢] بعد ذلك بقصيدة ، ووجد تاج العُلا فى الدّهليز يُريد أن يَدْخل للوعظ ، فبادر وكتب للظاهر :

[كامل]

العبدُ قد وافى ليُنْشِد مِدحةً بُنِيتْ قواعدُها على التَّخْفيفِ

وأَخافُ من تاج العُلا تَطْويلَه ليلًا فأَلْحق مَلْحق ابْن خَرُوف

فضَحِك وأمر بإدخاله قبل وعظ تاج العُلا . فحضر وأنشد .

ومقطَّعات ابْنِ خَروف طيّارة ظَريفة ، كقوله فى غُلام سِنْدى :

[كامل]

ومُنَوَّعِ الحركاتِ يَلْعبُ بالنُّهى لَبِس المحاسن عند خَلْعِ لباسِه

[69 b] / مُتأوِّد كالغُصن بين رياضه مُتلفِّت كالظّبى عند كِناسه

بالعقل يَلْعب مُقْبِلًا أو مُدْبِرًا كالدَّهر يَلْعب كيف شاء بناسه

ويضُم للقَدَمين منه رأسه كالسَّيف ضُمّ ذُبابه[٣] لرئاسه

وقوله فى غُلام خيَّاط :

[بسيط]

بَنى المُغيرة لى فى حَيّكم رَشأٌ ظِلالُه سُمْركم تُغْنيه عن سَمُرِه

يُزْهَى بهفرَسُ الكُرْسِيّ مِن بَطَلٍ بإبرةٍ هى مِثْل الهُدْب من شُفُره

(١) هو الشيخ جمال الدين أبو المظفر عبد الرحمن بن محمد ، المعروف بابن السنينيرة الواسطى . (وفيات الأعيان ١ : ١٢٣).

(٢) تكلة يقتضيها السياق . (٣) رئاس السيف : مقبضه .

إذا تألَّق عنها الخيط[١] تحسبها　　شهابَ رَجْمٍ جَرى والنُّور فى أَثره

يودّ كل لسانٍ أن يكون لهَا　　لِبْداً إذا فرغت بالرَّقم من حِبَره

وهذا كُله مما لا يَخْفى أثرُ غَوْص الفكر فيه ؛ وهو من محاسن « كنوز المعانى » .

وكان الأستاذ أبو عِمران الطَّبرانى يتعجَّب من قوله فى غلام مُعذّر :

[طويل]

وكان غريبَ الُحسن قَبل عِذاره　　فلمَّا بدا صار الغَرِيبَ المُصنَّفَا[٢]

ومن نوادره قوله ، وقد حَبس القاضى محبوباً لَه[٣] :

[وافر]

أَقاضِى المُسلمين حكمتَ حُكْماً　　غَدَا وبه الزمانُ له عَبُوساً

سَجَنْتَ على دراهمَ ذا جمالٍ　　ولم تَسْجِنْه إذ غَصب النُّفوسا

/ وقوله وقد دعاه إلى طعامه ابن كُهيب الدمشقى : [70a]

[مجتث]

دعانىَ ابنُ كُهيب　　دُعَاء غير نبيــــهِ

(١) رواية هذا الشطر فى زاد المسافر ، والمغرب :

* كأنها فوق ثوب الخز جائلة *

(٢) يشير إلى كتاب الغريب المصنف ، لأبى عمرو إسحاق بن مرار الشيبانى المتوفى سنة ٢٠٦ هـ . والرواية فى المغرب « فلما بدا صار » .

(٣) العبارة فى نفح الطيب (٣ : ٣٩٦) : « وقال فى صبى حبس » .

إِن عُدْت يومًا إليه　　فوالدِى فى أَبيــه

وأَنشدنى له أبو بكر بن الصَّابونى الإشبيلى[١] مُستطرفًا :

[مجتث]

مِثْلِى يُسَمَّى أديباَ　　مثلى يُسمَّى أَرِيباَ

إِذا وَجدْتُ كثيبا　　غَرست فيه قَضِيبا

ثم زاد من قوله :

ولا أُبالى خَصِيبا　　لَقِيتُه أَمْ جَدِيباَ

وأنشَدنى الشَّهاب القُوصى عنه ، وهى مَشهورة عند أدباء دمشق :

[وافر]

تَروق دِمَشْقُ ولدانًا وحُورًا　　وتُزْهى زَهْو جنّــات النَّعيمِ

إِذا رحلتْ عَروبة[٢] عن حِماها　　تأوّه كلُّ أَوَّاب حَلِيمِ

إلى سَبْتٍ حكى فرعونَ مُوسى　　يُجمِّع كل سَحَّـــار عَلِيم

فتُبْصر كلّ أُمــلودٍ قَوِيمٍ　　يَمِيس وكلّ ثُعبانٍ عَظيم

---

(١) هو أبو بكر محمد بن الفقيه أبى العباس أحمد بن الصابونى . شاعر إشبيلية الشهير الذكر . والذى أظهره مأمون بنى عبد المؤمن . وله فيه قصائد عدة . وله الموشحات المشهورة . من شعراء المائة السابعة . وقد رحل إلى القاهرة والإسكندرية فلم يلتفت إليه. ومات عند إيابه إلى الإسكندرية كمداً سنة ٦٣٦هـ. (انظر نفح الطيب ٥ : ٦٢ — ٦٤ — وعنوان المرقصات والمطربات ص ٥٠— واختصار القدح المعلى) .

(٢) عروبة ، هى يوم الجمعة .

إذا انسابتْ أراقــه[1] عليه   تَذكَّرْنَا بها لَيْـــلَ السَّليم

[70 b] /وشاهَدْنا بها فى كل حالٍ   حِبالًا أُلقِيت نحــو الكَليم

وتَحْشر فوق أخضر مُسْتدير   ضَراغمة الشَّرى وهى[2] العَريم

بمَغْدَى صَبْوةٍ ومَراح أُنْس   ومَوْرِد ظَبْيـــة ومَراد رِيم

مُسلَّطة العيون على قُلوب   مؤيَّدة الفُتون على حُـــلوم

وتُبـــدى بالصَّوالج فى كُراتٍ   محاسنَ فِعْل أصحاب الرَّقيم

فتبصُر عند ذلك كيف تَسْطو   بُدورٌ بالبُروق على نُجـــوم

تَظَن كُراتها تَنْبتّ منهـــا   قلوبُ العاشقين عن الُجسوم

وما فى ضَرْبهـــا ألمٌ بشىء   من الأشياء إلا بالهُمـــوم

وأهل دمشق قد اختصّوا بيوم السبت يعطّلون فى هذا اليوم من الُجمعة جميعَ أشغالهم ، ويخرُجون إلى هذا الميدان الذى ذكره . فقوم يلعبون بالصَّوالج، وآخرون يُغنُّون السماع .وكُل أحد فيما مال إليه هواه ، لا مثرِّب ولا مُنتقد . ويمتدون فى ذلك عن الميدان إلى المقاسم ، حيث تنقسم أنهار دِمشق وتنصبّ إلى ما بين الشَّرفين المشهورين بالجسر.

[71 a] ووقع لى فى ذلك / أيام مُقامى بها :

[مجزوء الكامل]

أمّا دِمَشْقُ فجَنَّـــة   يَنْى بها الوطنَ الغَريبْ

لله أَيَّام السُّبو   ت بها ومَنظرها العَجيب

---

(١) فى نفح الطيب (٥ : ٢٢٩) : « أراقمها عليها » .

(٢) العريم : الداهية .

أُنظر بِعَيْنك هل تَرى إلا مُحِبًّا أو حَبيب
كلٌّ يبلِّغ نفسَه ما تَشْتهى مَرَحًا وطيب
فى حيث لا داعٍ هنا لكسِوَى السُّرور ولامُجيب
أرضٌ خَلَتْ ممَّن يُنغِّص أو يُراقب أو يَعيب

وقلت أيضًا :

[بسيط]

أمّا دِمَشْق فما فى الأرض مُشْبِهها جنّات عَدْن بها ما يَشْتهى البَشَرُ
أرضٌ لَعَمْرك ما فيها لمُبتذل ذامٌ يَلومُ ولا فى صَفْوها كَدَرُ
وكلّ سَبْتٍ بها عِيدٌ تعودُ به آمالُهم وبه الزّلات تُغتفَر
كلٌّ إلى ما دعَتْه نفسُه عَجِلٌ كأنما فُرْصة قد جاء يَبْتدر
حيثُ الميادينُ كالدِّيباج قد بُسطت خُضْرًا جَرتْ حولها من مائها طُرَر
بها النعيمُ غدا للناس مُكتملًا مُطوَّلًا وهو فى الآفاق مُخْتَصر
القُضْبُ راقصةٌ والطير صادحةٌ والنَّشر مُرتفع والماء مُنحدر
[71 b] / وقد تجلّت من اللّذات أَوجهُها لكنّها بظلال الدَّوْح تَسْتتر
وكل وادٍ به مُوسى يُفجِّره وكل رَوْضٍ على حافاته الخَضِر

تراجم

سنة خمس وستمائة

اثنتان

١ — أسعد بن منجا الدمشقى

٢ — السيد أبو الحسن على

الترجمة الأولى

[ابن منجا]

الفقيه الخطيب الأديب أسعد بن مَنْجا الدِّمشقى .

فى « تاريخ حلب » أنه وُلد بدمشق سنة خمس عشرة وخَمسمائة .

واشتغل بالأدب والفقه إلى أن ولى قضاء حَرّان[١] ، وخَطَب على منبرها للمُستضئ العبّاسى[٢] .

ومن شعره :

[وافر]

أَراشَ نِبَال مُقْلته فأَصْمَى ... غَزالٌ فاترُ اللّحظات أَلْمَى

يُعلِّلنى بسَوْف وهَلْ وحَتّى ... وقَدْ وعَسى ولَيْت ولا ولَمّا

فأُوسِعه على التّفسيح حَمْداً ... ويُوسعنى على الإحسان ذَمّا

وجرى ذكره بحَرّان ، فأخبرنى بعضُ مَن ينتهى إلى الأدب من أهلها ، أنه كان جليلاً نَبيلا ، وله مقطّعات / فى الغراميّات يَشْدو [72 a] بها أهلُ الشارع . وحُفظ منها قولُه ، وفيه كفاية ودلالة على لطف مَنْزعه فى هذا الباب :

(١) حران : قصبة ديار مضر ، بينها وبين الرها يوم ، وبين الرقة يومان . وهى على طريق الموصل والشام والروم . (انظر معجم البلدان) .

(٢) هو أبو محمد الحسن بن المستنجد بالله يوسف بن المقتفى العباسى . ولد سنة ٥٣٦ هـ . وبويع بعد وفاة أبيه وبعهد منه سنة ٥٦٦ هـ . وكانت وفاته سنة ٥٧٥ هـ .

[مجزوء الكامل]

يامَنْ به أنا مُغرَمُ ... أرْحم فشلِيَ يُرْحَمُ
لم يبْقَ فيّ بقيّــةٌ ... أُجْفَى بها أو أُظْلم
هذا زمانُك لو قَبِلْـ ... ـتَ وكُنْت ممّن يُنْعِم
ما الْحُسْن إلّا دَولةٌ ... محبـــوبةٌ تُسْتَغْنَم
فإذا انقضتْ وأَضَعْتَها ... جَهلاً بهـا فستَنْدم
أنا قد نصحتُ وبعد ذا ... نَفْسِى فِدَى مَنْ يَفْهم
والله حَسْبِى مَنْ يَعُو ... قك إنما هى أَسْهُم
ومن العِذار يُخال رَقْـ ... ـماً وهو عندى أرقم
بالله خَــبِّرنى أَوَصْـ ... ـلِى فى الكِتاب مُحرَّم
ودَمِى حلالٌ ؟ ما أَرى ... يُفْتِى بهــذا مُسْلِم
ولقد ذكرتُ زمانَنا ... والشَّملُ عِقْدٌ يُنْظَم
فبكيتُه حتى بكتْ ... أسفاً عـــلىّ اللُّوَّم
يا حادِى الأظْعان قِفْ ... فلعلّ أن يَتَلَوَّمُوا
ولئن أقمتَ عُهْجتى ... حيثُ اغتَدوْا أوخَيَّموا
فأَرى لواحظَ قاتِلِى ... من حيثُ ألّا يَعْلَموا
يا جِــيرتى بالمُنْحنَى ... ما باُخْتِيارى بِنْتُم

١٤٩

[72b] /لا أوْحش الله الِحْمَى بأُهَيْل وُدِّى مِنْكُم

ما كنتُمُ إلا النَّعيم مخلَّدًا لو دُمْتُمُ

لا فارقَتْكم مُزْنةٌ تَبكى البلادَ فتَبْسم

وكانت وفاته سنة خمس وستمائة .

الترجمة الثانية

[ابن أبى حفص]

السيد أبو الحسن علىّ بن أَبى حَفْص [عمر] بن عَبْد المؤمن.

وقفت على ترجمته فى « معجم الشَّقُندى » و « معجم والدى » و « رحلة ابن حَمَّويه الدمشقى » .

وتلخيص أمره : أَنه كان من أجلّ بيته قَدْرًا ، وأطيبهم ذكرًا ، وأَسْفحهم يدًا ، وأمنعهم سندًا . وكان مألفًا للشعراء والأدباء .

ولابن الفَكُّون[1] الشاعر فيه أمداح مخلّدة ، ولغيره من الشعراء . وكان من أعلم الناس بأمور الرىّ والمَبانى . فرأى المنصورَ تَرْكه بمراكش يدبِّر مبانيه فى إحدى سَفَراته .

[73 a] وطالت أيامه فى بجاية وأُشتهرت إلى أن تغيّر ما بينه وبين / قاضيها أبى العبّاس أحمد بن الخَطيب[2] . وكانا فرَسَىْ رِهَان فى الهمَّة والسّماح بالمال فى الأغراض ، وكل أَحد على قدر منصبه . فأَكثرَ لَجَاجاتِه فى

---

(١) هو الفقيد الكاتب الأديب أبو على حسن بن الفكون . قال الغبرينى فى كتابه « عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء فى المائة السابعة ببجاية » : « من الأدباء الذين تستظرف أخبارهم ، وتروق أشعارهم . رحل إلى مراكش وامتدح خليفة بنى عبد المؤمن . وأصله من قسنطينية » . (انظر عنوان الدراية ص ٢٠٢ — ٢٠٤)

(٢) هو أبو العباس أحمد بن أبى القاسم عبد الرحمن بن عثمان التميمى الخطيب ، قال الغبرينى فى كتابه « عنوان الدراية »(ص ١٤٤) : « هو أول بيت بنى الخطيب ببجاية ، ولى قضاءها من مراكش . وكانت له صلابة فى الأحكام وقلة مبالاة بأحد من الحكام » .

القاضى حتى عُزل. فجمع القاضى جميعَ ماله: أثنى عشر ألف دينار، فأخذه معه وطلع إلى مَرّاكش، فنزل فى جوار أبن مُثنَّى ، وأراه أنه لم يقصد سواه ، وهو حينئذ يجُرّ الدنيا جرًّا . فقال له : فيمَ جئت ؟ أَتطلُب أنْ ترجع إلى ولايتك ؟ قال : لا ، ولكن جئت فى أن أعزل الذى عزلنى، وأَغلِب مَن غلبنى . قال : وبأى شىء تفعل ذلك ؟ قال : بك وبأثنى عشر ألف دينار جئتُ بها معى. قال : الآن حَصْحص الحق . فسعى أبنُ مُثَنّى ، فى عَزل السَّيد . وأستعان بالمال فى الحاشية ، إلى أن كتب للسيد بالعزل. فعند ما بلغه الخبرُ قال :

[مجتث]

لا تَحْقِرنَّ حَقِيرًا ... وتُهمِلنَّ[1] غَموضَه

فرُبَّ سيّد قَوْمٍ ... أَوْدَى بِسَعْى بَعُوضَه

إنّى خَمْرٌ ولكنْ ... قد أعقبتها حُموضه

ثم ولّاه الناصرُ[2] بعد ذلك تِلِمْسان ، وبَنى بها المَبانى المشهورة ، [73 b] ثم أشتد مرضُه ، فأستغفر ورَغب في أن يَصل إلى الحضرة ، فأُسعف . فوصل إليها ونَزل بها دارَه المشهورة بعظم النَّباهة وعُلو الهمم فى التدبير . إلى أن مات هنالك فى سنة خمس وستمائة .

وعَدّ ذلك أصحابُه من سعادته ، فإنّ يحيى بن غانية المَيورقى[3] كان أَحرصَ الناس على أن يحصُل فى يده ، لأنه لما هزمه المَيورقى على

(١) غموضة : خامل ذليل .
(٢) انظر الحاشية رقم (١ ص ٣٣) من هذا الكتاب .
(٣) انظر الحاشية رقم (١ص ٩٠) من هذا الكتاب .

قُسنْطِينية[1] وجد له مَطايا كثيرة للبناء، فقال: إذا كان يخرج بهذه المطايا إلى مثل هذا الموقف فكيف يكون في مستقرّه ، والله لئن ظفرت به لأقلعن خُصاه .

قال الشَّقُندى : فكان من ظَرْفه إذا أُنتشى تذكّر قولَ المَيورقى وجَعل يَصيح : بيضَنا يا ربّنا ! فلما كان في سنة عَزله ووفاته ، وَلى تلمسان أبو عمران ، ابن عمِّه أبي يعقوب ، وخَرج إلى الميورقى ، وقد جاء إلى جهات تلمسان ، فكانت وقعة تاهَرْت[2] التى قُتل فيها السيِّد. [74a]

ومما يُعد من محاسنه حمايتُه لأصحابه وخُدَّامه ومن أُنقطع إِليه . وكان لا يَسمع فيهم قوَل ساعٍ ويقول: إن الواحد منهم يَخْدُمنا في الرخاء، ويَصحبنا في الشدة، حين لا نَرى أحدًا ولا نجده لأمرٍ يَعِنُّ لنا ، فإذا عاد الله بالخير وأَسْهمناهم فيه حُسدوا ويُسعى بهم .

وقد ظهر من حِلْمه عن عِمارة الشاعر البِجائى[3] ، حين هجاه وحَصل في يده ، ما هو مَذكور مُخلَّد .

---

(١) قسنطينية : مدينة أزلية من حدود إفريقية مما يلى المغرب، تزاور عنها قلعة بنى حماد ذات الجنوب . (انظر معجم البلدان) .

(٢) تاهرت : اسم مدينتين متقابلتين بأقصى المغرب، يقال لأحدهما: تاهرت القديمة، وللأخرى: تاهرت المحدثة . بينهما وبين المسيلة ست مراحل . وهى بين تلمسان وقلعة بنى حماد. (انظر معجم البلدان) . وانظر المعجب (٣١٤، ٣٣٠) .

(٣) هو أبو الطاهر عمارة بن يحيى بن عمارة الشريف الحسنى . قال الغبرينى فى « عنوان الدراية : « وقد ذكر لى أن شعره قد جمع فى ديوان ، ولكنى ما اطلعت عليه . وقد رأيت بعض قطع مستحسنة من شعره » .

وذكر أبو عبد الله بن إبراهيم الأُصولى[١] قاضى بجاية أنه قال : أحصيتُ ما وصلنى من السيّد أبى الحسن أيامِ كَوْنى معه ، فوجدتُ ذلك أربعين ألفاً .

وحكى التاج بن حَمّويه أنه لحقتْه عُطلة ولزمتْه دُيون فى مدة المنصور فكتب إليه من شعره[٢] :

[متقارب]

وُجوه الأمانى بكم مُسْفِرهْ　　وضاحكةٌ لىَ مُستبشرهْ

ولى أملٌ فيكُمُ صادِقٌ　　قَريبٌ عسى الله قد يَسَّره

علىّ دُيونٌ وتَصْحيفُها[٣]　　وعندكمُ الجُود والمَغْفره

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم النهرى المعروف بالأصولى . قال الغبرينى فى عنوان الدراية : « من أهل بجاية ، رحل إلى المشرق ولقى العلية والجلة من أهل العلم ، وولى قضاء المدن بجزيرة الأندلس . واستخلف بمراكش ، وولى قضاء بجاية ثلاث مرات ، وصرف عن آخرها سنة ثمان وستمائة . وتوفى ببجاية سنة اثنتى عشرة وستمائة » .

(٢) فى النفح (٤ : ١٠٦) : « وذكر السرخسى أيضاً فى رحلته السيد أبا الحسن على بن عمر بن أمير المؤمنين عبد المؤمن ، وقال فى حقه : « إنه كان من أهل الأدب والطرب . ولى بجاية مدة ثم عزل عنها لإهماله وإغفاله وانهماكه فى ملاذه . ثم قال : « أنشدنى محمد بن سعيد المهدى كاتبه قال : كتب الأمير أبو الحسن إلى أمير المؤمنين يعقوب يمدحه ويسترفده ويطلب منه ما يقضى به ديونه » . ثم ذكر الأبيات .

(٣) وتصحيفها ، أى : ذنوب .

فرضى عنه وولّاهُ وأَحسن إليه . وكتب إليه ابنُ عمه السيد أبو الربيع[1] :

[مجزوء الرجز]

[74a] /اليوم يومُ الجمعه يومُ سُرور ودَعَـــه
وشَمْلُنــا مُفترق فهل تَرَى أَنْ نَجمعه

فجاوبه :

[مجزوء الرجز]

اليوم يوم الجمعـــه وربُّنا قد رَفَعَـــه
والشُّرْب فيه بِدْعةٌ فهل تَرى أن نَدعَه

ومن لطائفه أنه كان قد أرسل فى شُغل فتًى من خاصته ، كان من أجمل الناس صُورةً ، واتفق أن عاقه عن بُلوغه إلى المَقصد عائق فعاد ، وأُعلم بذلك ، وهو مُصطبح بالرّبيع ، فقال :

[مجزوء الرمل]

أَنعم اللهُ صَبـــاحاً للنَّـــدى عاد إلينا
وأَقرّ اللهُ فيـــه للذى يَهْواهُ عَيْنـــا
لا رأينا بَيْننـــا يا مَجْمع الآمالِ بَيْنـــا

(١) مرت ترجمته (ص ١٣١) من هذا الكتاب .

/ كُتب فى التاسع والعشرين من جُمادى الآخرة [75b]

عام خمسةٍ وثمانين وستمائة .

وأسأل الله خير ما يقضى به .

فهارس الكتاب

فهرست تراجم الكتاب

(١) وذكره أبوعثمان بن ينسون فى كتابه « لمح السحر » مخطوطة دار الكتب المصرية : ٨٢ ش أدب — فقال: « القراوى أحمد بن عبد السلام ، بضم القاف ، الغفجومى ، بضم الغين المعجمة . ويعرف بالجراوى ، بالجيم . صاحب كتاب : صفوة الأدب ، ونخبة ديوان العرب » . واختصاره له ، هو الحماسة المتأخرة » .

وقال الحميرى فى الروض المعطار — مصورة نور عثمانية — : « جراوة مكناسة : مدينة أسسها أبو العيش عيسى ابن إدريس بن محمد بن سليمان بن عبد الله سنة ٢٥٩ هـ . ولعل أحمد بن عبد السلام الجراوى شاعر بنى عبد المؤمن من هذه المدينة، إذ كان يدعى : الجراوى . توفى سنة ٦٠٩ هـ . وكان حافظاً . وضع للمنصور بن يعقوب مجموعا من أشعار الناس ورتبه على أبواب الحماسة . وكان غيوراً على الشعر ، حسوداً للشعراء ، ناقداً عليهم ، غير سليم لأحد منهم » :

فهرست الأعلام

(١) فى ص ٥٩ : « الفضل » مكان « أبو الفضل »

فهرست القبائل

فهرست الأماكن

فهرست الكتب

فهرست القوافى

الصدر	القافية	البحر	الصفحة
ذا	مناركِ	وافر	٨٤
كادت	شباك	كامل	١٢٤
تضمن	الفلك	متقارب	٦٠
	(ل)		
نصرتم	معدل	طويل	٣
أسعدنا	معدل	»	٣٠
رأيت	تفعل	»	١١٤
ألا	بصلال	»	٦
وصل	له	مديد	٨٧
جاءوا	وأجبال	بسيط	١٠٣
حيتك	ياجمل	»	٦٩
است	الجمل	»	٤٦
يا	للجمل	»	٤٦
لاموا	خمائله	»	٥٤
اسمع	الرجال	مخلع البسيط	١٨
وقائلة	الذبول	وافر	٥٤
وقائلة	الكهول	»	٧
لك	والأجيال	كامل	٨٤
لهفى	بعادل	»	١٢٢
لا	الأول	»	١٢٣
سر	المقتل	»	١٢٩
يا	الأجل	»	٥٥
لى	حيله	مجزوء الكامل	١١٣
أهلا	شاغل	سريع	١٣
يا	قائل	»	١١٤
ابن	بقطربل	»	٦٤
أنظر	فى حلى	»	٧
لنا	وأمثاله	»	٦٥
ملت	يميل	خفيف	٥٣
أرعشت	القنديل	»	١١٥
انى	أنزل	متقارب	١٣٧
أيا	ولى	»	٢٧
	(م)		
ولما	أتظلم	طويل	٢٤
جلسين	رق	»	٧٠

الصدر	القافية	البحر	الصفحة
لقد	جهنما	طويل	١٠١
وميت	تكلما	»	١٣٣
كنت	فهيم	مجزوء المديد	٤٠
أيها	أظلم	»	٤٩
أيها	يفغم	»	٤٩
الله	الأقاليم	بسيط	٩٦
لك	الألم	»	١٢٩
لله	النعم	»	١٥
ما	سلما	مخلع البسيط	٤٦
يا	محكم	»	١٠٧
حم	المدام	وافر	٩٣
أعيذك	الزعيم	»	٩٣
لها	ظلوم	»	٩٣
شروق	النعم	»	١٤٢
أراش	ألمى	»	١٤٨
يا	نيام	كامل	١٢٥
يا	غفجوم	»	٩٩
يا	والديلم	»	١٣٢
يا	يرحم	مجزوء الكامل	١٤٨
قد	آلامه	سريع	٢٦
يا	منعما	»	١٢٧
يا	الكلام	»	١٥
نسر	بعام	»	٣٨
يا	بالسلام	»	١١٤
قد	طسيم	»	٢٤
ايا	عميم	»	٣٤
صبح	والكرامة	خفيف	٧١
ثار	الدم	مجزوء الخفيف	٥٢
نهانى	أظلم	متقارب	٩٥
أيابن	التمام	»	١٠١
أسيدنا	نحوم	»	٤٧
	(ن)		
عصوا	طوفان	طويل	١٠٣
لله	إلينا	مخلع البسيط	٤٦
إذا	عين	وافر	٨٤

فهرست الأنصاف

فهرست الموشحات

ذخائر العرب

مجموعة جديدة يشترك فيها علماء الشرق والغرب لبعث الكنوز العربية الخالدة ، تقدّم إلى جمهور القراء فى أنصع حلة من التحقيق الدقيق وجمال الإخراج .

ظهر منها :

١ ـ مجالس ثعلب (القسمان الأول والثانى)
٢ ـ جمهرة أنساب العرب لابن حزم
٣ ـ إصلاح المنطق لابن السكيت
٤ ـ رسالة الغفران (عن أقدم نسخة خطية) لأبى العلاء
٥ ـ ديوان أبى تمام (شرح التبريزى)
٦ ـ حلية الفرسان وشعار الشجعان لابن هذيل الأندلسى
٧ ـ طبقات فحول الشعراء لابن سلام
٨ ـ حى بن يقظان لابن سينا وابن طفيل والسهروردى
٩ ـ الورقة لمحمد بن داود بن الجراح
١٠ـ المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد
١١ـ نسب قريش
١٢ـ إعجاز القرآن للباقلانى
١٣ـ اللزوميات لأبى العلاء المعرى
١٤ـ الغصون اليانعة



تصدرها

دار المعارف بمصر

بإشراف حضرات

محمد حلمى عيسى والدكتور طه حسين والدكتور أ[حمد]
أمين والدكتور عبد الوهاب عزام والشيخ أحمد محمد شا[كر]
والأستاذ إبرهيم مصطفى .